حسن أشرف

تشاؤم شوبنهاور

معاناة الوجود

مجموعة قصصية

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

مجموعة قصصية

تشاؤم شوبنهاور

اسم الكتاب: **تشاؤم شوبنهاور**

اسم المؤلف: **حسن أشرف**

تدقيق لغوي: **مؤسسة العماد**

تصميم الغلاف: **بلال محمد**

الإخراج الداخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **2022/3385**

الترقيم الدولي: **978-977-6937-75-8**

جميع الحقوق محفوظة ©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

darerteqaa@gmail.com

+201029303589

حسن أشرف

مجموعة قصصية

تشاؤم شوبنهاور

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

إهداء

أبي وأمي، دومًا أتمنى أن تكونا في أحسن حال، وأرجو من الله أن يطيل أعماركما، متمنيًا أن أحظى بنظرات الفخر التي تحملانها لي.

نظرتُ إلى ابتسامة أمي فوجدت تجاعيد وجهها، حين أقوم بإضحاكها تظهر تجاعيدها أكثر وأكثر، ومازالت ملامحها بريئة صغيرة السن، رغم تحملها الكثير، ومن خلال هذا التحمل؛ تجمّلت ملامحها وتزيّنت.

التمهيد

لا تسخروا من مريض الاكتئاب، أنت لم تعش معاناته وندوبه التي لم يبح بها، وربما أباح لك بها وأنت لم تأخذ الموضوع على محمل الجد، كان يريد أن تقف بجانبه، وأنت بكل حماقة سخرت منه، واستهزأت به؛ لأنك بكل بساطة ترى مشاكله ضئيلة الحجم، لمجرد أنها لم تتناسب مع مشاكلك، وحين قام بتفوّه كل كلمة لك كان عليك أن تقتنع أنه اختارك؛ لأن أمله الوحيد أن ينصت له أحد، فما ظنك أن كنت مجرد أمل له، ثم إنك قطعت الوصل بينكما! فلا تسأل: لماذا ابتعد عنك؟

"المغتصب"

ها هي طبول الحرب تُقرَع، فلتكُفِّي قليلًا واقرعي طبول الورد بدون أشواك، اقرعي طبول العناق بدون طعنةٍ من الخلف، النساء ليست وحدها تبكي فالرجال أيضًا تبكي، أيها الطبيب! فلتكُف عن كتابة الدواء، أعلم أنه عملك.. لكن أريد أن تنصت لي لوهلةٍ، دعني أتخذ مكانك لمدة نصف الساعة، حتمًا لن تستطع التحمل مثلي تمامًا؛ فنحن بشر.. جاهزون لقرع طبول الخير، لقرع طبول الحرب بدون الراء. كانت تسير بمنهج "السير بجانب الحائط ليحتار ذلك العدو"، عدوٌ متربص بها ويراقبها، وعلى ملابسها يعاقبها، وليس هي فقط، بل كل الذين يسيرون بنفس المنطق والطريقة ذاتها، طريقة ورثتها الأجيال جيلاً بعد جيل، منذ متى ونحن نطالب برسوم إلغاء اشتراك حجز جميع

الحوائط والجدران والمباني، انظروا جيدًا بكل ركن من الأركان.. ستجدون الأطفال أمرهم يُرثيه الجميع، هناك مَن يقدم المساعدة، وهناك مَن ينظر إليهم بعين الشفقة، ومَن يمارس ضدهم أحكام قانون الحياة البائس العاجز الفقير؛ التنمر والاستهزاء بهم، نعم.. هذا هو القانون الوحيد السائد المعروف بقانون الغاب، نحن متساوون في الإنسانية التي اكتسبتها الحيوانات من البشر، من شدة اختلاطها بنا، فأصبحنا نفتقدها الآن، ولم يعد بيننا صالحٌ إلا مَن رحم ربي، عاجزون نحن يا الله! فكن لنا مُعينًا، خلقتنا وبداخلنا الخطر، يشبه نزول قطرات المطر، ولم أنكر بأن الخير موجودٌ، ولكن الشر أكثر حكمة وتفنن في إخفائه.. بائعة المناديل الورقية ماكثة بجانب الحائط، اقترب منها رجل مفتول العضلات ووجهه بشوش، يبدو عليه الهدوء والثراء معًا، وهي حسناء سمراء البشرة، ومعها طفلٌ صغير، ربما تركها زوجها أو تُوفي. ذلك المفتول مقتول المشاعر، قام بالشراء منها وترك لها أضعاف السعر المعروف، ثم سعدت بهذا الحدث، وضمنت إطعام الطفل، وذهبت إلى منزلها، أتى لها في اليوم التالي.

أهلًا! كيف حالك؟ وما اسمك أيتها الحسناء؟

- لمياء، بخير، شكرًا لك على ما فعلته لي البارحة.

لم أفعل سوى الواجب لا أكثر، اسمي أسامة، هل تريدين عملًا بمرتب شهري كبير؟!

- نعم، أود ذلك.

ستعملين معي بالمنزل، هو يشبه القصر قليلًا، وبه حديقة وحمَّامٌ للسباحة، أعيش وحيدًا، لا أمتلك أسرة، ستنظفين وتطبخين لي إن أردتِ ذلك.

- سأفكر، وقريبًا سوف تتلقى الرد.

تفضلي هذا المبلغ.

- لا أريده، سأكتفي ببيع المناديل.

كما يحلو لكِ، ولكن بداخلي الكثير.. أود أن تنصتِ لي جيدًا، سمعت أحدهم ينعتك بالعاهرة، هل أنتِ حقًّا بائعة الهوى؟!

- لماذا تُرَدد الشائعات التي تم دسها بداخلك أستاذ أسامة؟ سوف أشرح لك أمرًا هامًّا للغاية، أنت تستغل نقطة ضعفي وهي حاجتي للمال، ولم تكن أنت الأول الذي يفعل هذا، كوني لا أرتدي حجابًا كما ترى أوحى لك بهذا الشكل المرفوض بالنسبة لي، المظاهر العامة التي تظهر للمارة، كفيلة بتدمير سُمعتك؛ لذلك نعتوني بالعاهرة، وبحكُم بيع المناديل في الطرقات، أصبحت كذلك في نظر أمثالك، ولا أحد يعلم ما يخفيه باطنك.

إن لم تأتِ بكل رضًى.. انظري إلى تلك السيارة، إنهما رجلان مفتولا العضلات، قادمان إلى اصطحابك، وسأفعل ما أريده أنا، أنتِ لا تمتلكين الحقوق، ولن ينصفك أحد حتى وإن كُنتِ على حق، بكل بساطة سيتم اتهامك والتهامك أيضًا.

- لا أعلم مَن أنت؟! كل ما أعلمه هو امتلاكك للمال، ويبدو عليك أنك من ذوي الطبقة العليا، وكل ما عليك فعله بدلًا من الخضوع لنزواتك واستخدامك لسلطة المال والنفوذ...

اصمتي وإلا قمت باختطافك.

- فلتصمت أنت أيها الذئب البشري، وقد ظلمتُ الذئاب، عبث العابثين يعبث بي، أنا مجرد بداية لجندي على رقعة الشطرنج يسعى للترقية، وهناك ملك يطارده في واقعه وأحلامه، وسوف يبهر الجميع بإعلان (كش ملك)، حينها سأقول: أنا الفائزة في تلك المعركة.

"شعار كاذب"

يسير على نهج غير مفهوم ومألوف بالنسبة لمعظم البشر، أصبح وليد اكتئابه بسبب محيطه، حين قاموا بنبذه وجعلوه يشعر بأنه غير مرغوب به، اختار العزلة والوحدة طريقًا صائبًا للتخلص من ترهاتهم، وعقله لم ولن يكُف عن التفكير، يريد أن يضع مبادئ تفكيره؛ ليتبعها محيطه الذي يسوده الجهل وعدم القدرة على الاستيعاب بوجود الاختلاف، لذلك فقدوا لذة الائتلاف المجتمعي، أصبحت حالته يُرثى لها، الشرود الذهني يتمكن بعقله، فيجعله مُشتتًا بشكلٍ دائم.. هذيل الجسد، طويل القامة، وجهه شاحب، وعيناه ضيقتان، أسفلهما السواد، حتى أصدقاؤه المقربون ينعزل عنهم لعدم تقبلهم له، يعاني من مشاكل نفسية والسبب عقله، هل التفكير نعمة أم نقمة؟! كل ما يريده هو أن يرتاح قلبه من تلك

الوعكة، حتى إنه لا يستطيع الدخول في علاقة حب، تخلَّى عنه الجميع، أهله تركوه غارقًا في تفكيره ومشاكله؛ لكثرة تساؤلاته التي تحوم حوله، ألم يَحِن موعد التغيير؟! يتسكع بإحدى الطرقات وكأنه مُراقَب، ينظر يمينًا ويسارًا وخلفه، حتى وجد أحد المقاهي، وجلس، وجلب له النادل كوب قهوة سادة المذاق، وضع سماعة الرأس ليستمع إلى الموسيقى، ويحتسي فنجانه بكل هدوء تام، ينسجم مع نفسه، الموسيقى تأخذ روحه لعالم هادئ تمامًا وكأنه لا يعيش وسط البشر؛ لأنه على يقين تام أنه غير مفهوم، ودائمًا ينعته البشر بالغموض، وفجأةً صرخ صرخةً لا مثيل لها، وأصبحت التشنجات العصبية تتملك كلَّ جزء من أجزاء جسده، ووقع على الأرض، والجميع ينظر له في ذهول واندهاش تام، ولم يحاول أحد مساعدته، حتى هدأ وقدَّم الاعتذار لهؤلاء الناظرين إليه، وجلس وأكمل فنجانه، وبات يسأل نفسه.. حتى الغرباء لم يقدموا لي يد العون، حتى في وعكتي يا الله! لماذا عليّ أن أكون هكذا؟ ودفع حسابه ورحل يكمل تسكعه حتى اصطدم بفتاة، بيديها بعض الروايات الفلسفية، اعتذر لها عن شروده وتشتته وعما بَدَرَ منه، بتوترٍ.. برر لها أنه لم يقصد ذلك، فقامت بالرد عليه بكل لطفٍ قائلة: لا يهم، المهم أن تكون على ما يرام.

- رد مبتسمًا لها قائلًا: على كل حال الاعتذار واجب.

أشكرك على ذوقك يا هذا!

- اسمي جون.

أنا ميلينا وتشرفت بمعرفتك، وتصافحا وذهب كل منهما في طريقه.

صباح اليوم التالي، يستيقظ بملامح كئيبة وأعصاب متوترة، حتى قامت والدته من مكانها حين رأته فأردفت قائلة: هدِّئ من روعك يا بُني، لكنه لم يُجِب عليها، وأخذ فطوره وذهب إلى إحدى الندوات الثقافية التي تُقام بمكتبة مصر الجديدة، فهو يحب تلك الأجواء، جلس على المقعد منتظرًا بدء الندوة، نظر إلى يمينه وجد الفتاة التي اصطدم بها بالأمس.

- مرحبًا ميلينا، كيف حالك؟

بخير يا جون، سعيدة برؤيتك هنا.

- سعيد بذلك أيضًا، صحيح، هل تعتادين الحضور إلى هنا؟!

ـ نعم، لأنني أهتم بالثقافة، وأُدوِّن الأشياء التي لا أفهمها في مدونتي الخاصة، لأقوم بالبحث عنها.

- جميل أنكِ تهتمين بالتفاصيل.

ردَّت ضاحكةً: ... لعينة!

- تهتمين بالفلسفة، أليس كذلك؟! كل مَن يهتم باللعنة أقصد التفاصيل، هو بالأحرى يدقق جيدًا في ثاني كلمة بداية من كلامي.

تبًّا! إنه العمق يفتت ثنايا عقلك.

- هاهاها.. لا بأس، فالجميع مُتعبٌ لا محال من ذلك.

وليس هناك ملاجئ تحمي أفكارنا من الدنس، كلما تعمقت أكثر أتعبت نفسك أكثر، الحياة عبثية بدرجة كبيرة، ومهما اجتهدت فسوف تطمع

بالمزيد، الإنسان أناني بالفطرة، بالعمل، بالسرقة بالنهب، حتى بالحب والصداقة، والعطاء والحنان، حتى في التعبير عن مشاعره، بالحماقة أيضًا.

- ميلينا! ها قد وجدت شخصًا مثلك، فلست وحيدًا في هذا الكون الفسيح، كنت قد فقدت الأمل، ونحن مجرد غبار كوني بالنسبة للمجرات البعيدة التي من حولنا.

الأمل موجود لا تيأس، ومن جهة أخرى إنه شعار كاذب.

- كمدرب تنمية بشرية، لا يفقه سوى الحديث بشكل نظري وليس عمليًّا، وهو ليس على مقدرةٍ من تنمية مهاراته.

كمدرب سباحة يعجز حين تسحبه دوامة البحر، هكذا هو الأمل.

- أتدرين يا ميلينا؟! أعشق فلسفة أسماك القروش.

وهل لديها فلسفة؟!

- تمتلك الكثير، ومنها أسلوبها في اصطياد الفريسة، بالطبع أقصد وجبة دسمة كبشري يبحث عن النجدة بالمحيط، وتلك الأسماك تحوم حوله عدة مرات، تجعله يشعر بالفزع حتى يتبول في ملابسه من شدة الخوف، ثم تفترسه، سمكة القرش لا تفقد الأمل؛ لأن معضلتها الوحيدة الطعام لا أكثر، فالطعام موجود بأعماق البحار ولكنه لا يسد جوعها، حتى وجدت ذلك البائس ذا الحظ التعيس، فقامت بملئ بطنها، هي التي جعلته يفقد الأمل، كان يطمع بإمساك القشة ليتشبث بها، ولكن للأسف لم يجدها!

جون.. تقصد أننا نفقد آخر نداء لنا من الآمال الكبيرة التي نحملها بفعل محيطنا، وفي نفس التوقيت يجب علينا التفكير بشكل منطقي، ولا نتبع الترهات، ولا نكون مجرد آلة لقبحهم.

- هو كذلك ميلينا.

"سيمفونية الألم"

العازف مبتور الأطراف، ينصت له بعضٌ من الخراف، بآذانها الطويلة، يحركون رؤوسهم يمينًا ويسارًا، منسجمين مستمتعين بما يفعله العازف النازف الجارف نحو مشاعره؛ وينصت دائمًا لزقزقة العصافير، فتعطي له انسجامًا تامًّا؛ فتشير له بأجنحتها، وهو يراها ويتوهم أنه العازف، تهدئ روعه من الألم، وكأن تلك العصافير تفهم أنه لا يحمل أطرافًا؛ فتساعده على فهم معزوفتها؛ ليفهم هو ويعيش بخياله، يعشق الطبيعة والأشجار المثمرة، ويمكث بداخل حديقة بها كوخٍ خشبي صغير، ولديه مساحة كبيرة من الأرض الزراعية بطريق "عين دلة – سيوة"، حيث مناطق التنمية الزراعية في الفرافرة الجديدة وفي المناطق الحدودية مع ليبيا وجنوب المنخفض، سمعه وبصره جيد للغاية،

ويجيد التأمل والتفكير والاسترخاء الذهني في ذلك المكان الذي يعتبر أنه كل حياته، يفعل فيه كل ما يروق له، يركض وراء الفراشات الزاهية بألوانها، وحيدٌ ويؤنس وحدته بعضٌ من الحيوانات الأليفة، رغم صغر سنه.. هو على حافة الأربعين، ولكنه واجه صعوبات وتحديات كثيرة، يحب العمل ولا يحب أن يكون عالةً على أحد، ويزوره بشكلٍ دائم ابن أخيه الأكبر فاروق؛ لكي يستفيد من خبراته في الحياة عمومًا، ولكن ذلك الابن لديه بعض الخبرات والتجارب الحياتية، رغم صغر سنه؛ فهو في ربع القرن من عمره، متوسط القامة، وبشرته بُنية تشبه حبات القمح، أتى له ملهوفًا مهرولًا! يحمل أمرًا ما يريد أن يقوله لعمه سعد..

ـ عمي عمي!

- مرحبًا يا بُني، من المفترض أن تكون في العمل الآن، ما الذي حدث؟!

أريدك في أمرٍ هامٍّ للغاية.

- أنصت إليك، تفضل!

يحملون السيف لقطع الرقاب! ولا يدرون أنه سيأتي اليوم ليتمرد السيف عليهم، ويُقطِّعهم إلى أشلاء، وليس الرقاب فحسب، حينها سيصبح السيف مُعطيًا الخير بسخاء، في طرفه المدبب ستجد حقوق المستضعفين.

- أتعلم يا فاروق؟! قلت لك وأنت طفل في مرحلتك الابتدائية؛ بأن الشر هو ناتج عن الخوف، وسببه ارتفاع الإدرينالين في الدم؛ لذلك يحدث سفك الدماء، والقاتل يدخل في مرحلة يكون فيها مُغيَّبًا، غير مكترث لمَن حوله، الإنسان يا بُني، ضعيف جدًّا، أضعف مما تتخيل! هو كائن دفاعي ويحمل الهجوم أيضًا بنفس ذات اللحظة، تركيبته غريبة للغاية، تشعر أنه يحمل مرض فِصام الشخصية، بداخله الخير والشر معًا، ويصمت أمام الجرائم التي تحدث أمامه؛ كالسرقة والقتل..إلخ، فالصمت أمام الكوارث هو لغرض النجاة.

الألغاز تفتت ثنايا عقلي، وكثرة التفكير في ماهية الاشياء ترهقني كثيرًا، لا أدري يا عمي، كيف يستطيع المرء أن يؤذي جاره، صديقه؟! حتى الحيوانات لم تسلم من شر البشر.

- يا ولدي! هذا أيضًا مُؤذٍ بالنسبة للشخص الذي يمارس الشر، حيث تأتيه لحظات من الندم، ويقول: يا ليتني لم أفعل، ما هي تلك الأسئلة التي يطرحها عقلك؟

ماذا لو أنصت الإنسان لصوته الداخلي؟

- لا يكترث لأحد يحاول إحباطه.

ماذا لو كان الإنسان على يقين بقدراته؟

- سوف ينجح لا محال.

ماذا لو أحب الإنسان الخير للجميع بدلًا من حبه للكره والحقد؟

- سيعود الزمن الجميل، ستعود المحبة تدقُّ على أبواب القلوب، ولا يوجد بما يسمى الندوب.

يا عمي، ماذا عن الانتقام؟ هل هو سلوك حضاري؟

- في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هناك قصة معناها؛ أنه بعد اقتحام حصن خيبر قام رجل بتقديم شاةٍ مسمومة للرسول، ولكن حكمة الله أنه تذوق جزءًا صغيرًا منها، وقام ببصقه، لو كان يكذب سيكون الموت حليفه، والمرأة التي أودعت السم بداخل الشاة، دعاها الرسول وقامت بالاعتراف على ذلك الفعل القاسي، ولأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مدرك بأن الانتقام ليس عدلًا؛ فأمر بالعفو، ونفهم من ذلك بأن القصاص مرهون بفعل القتل.

فهمت الآن، ولكن أهاب تلك الأفكار الانتحارية، قد استهدفت قوات العقل، إما أن ينفجر بسببها، وإما أن تموت بكامل قواك العقلية وهذا يستحيل؛ أو سيبحثون عنك ويجدونك مشنوقًا.

- الله سبحانه وتعالى، قال في قرآنه الكريم:{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}. فلا تيأس! وقال عزوجل: { لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ}.

عليك أن تدرك جيدًا بأن الحالة التي وصلت إليها لها سبب وحكمة، وحدتي ومصاحبتي للحيوانات الأليفة.. الله جعلني أعشق المكان الذي أمكث به الآن، دائمًا ألجأ إلى الله، بداخل كوخي هذا أحدثه كثيرًا، ويسمعني ويلبي ندائي.

ونعم بالله، أعلم، وبالطبع لن أنتحر، وهي مجرد أفكار تأتي لي وأقوم بتفاديها، وأسبابه الإصابة باضطراب نفسي كالاكتئاب، وجود محاولات سابقة في تاريخ العائلة، التعرض للعنف أو حتى مشاهدة العنف من حولنا، والقتل والتهديد بالسلاح، فقدان الأصدقاء، أو أحد أفراد العائلة، تناول الكحوليات، والجينات والتجارب المؤلمة والتسلط، وأيضًا العزلة الاجتماعية قد تكون سببًا في ذلك.

- علينا وضع أسباب للعيش ووضع تصورات لأنفسنا وتوقعاتنا لمستقبل أفضل؛ كالبقاء والمواجهة، المسؤولية أمر هام جدًّا، عليك أن تشعر بها، واقتنع بأن هذا الفعل معارض من الناحية الأخلاقية والإنسانية في المقام الأول؛ لأنك قد تتسبب في انتحار الكثيرين من بعدك، نظرية فرويد في التحليل النفسي.. فأسباب الانتحار نفسية، وهي مشاعر حب تتحول بسبب الإحباط إلى كراهية تنصرف عن المحبوب نحو شخص المحب، ولكي يدمر المحبوب لا بد أن يدمر نفسه، ويفترض فرويد أن التكوين النفسي يتضمن غريزتين متصارعتين هما: غريزة الموت والتدمير، وهي مصدر السلوك العدواني. وغريزة الحياة، وهي مصدر الفعل الخلَّاق والسلوك البنَّاء، ويرى فرويد أن غريزة الموت هي الغالبة بفضل ما تولده من ميول سادومازوشية؛ فترتد الكراهية والعدوان نحو الذات.

ما العمل يا عمي؟

- الإنسان يسمح لنفسه بأن يكون وسيلة للظالم، فيقع ضحيته مظلومًا، ويندب نفسه، ويكون أكثر عرضه للأمراض النفسية النابعة منهم هم وليس منك، العمل هو أنت تضع أهدافك وأحلامك وطموحاتك أمامك، لا تعطي اهتمامًا لأحد؛ لأن الإفراط في الشيء عواقبه وخيمة جدًّا، أنت وحدك الذي سوف يرتفع شأنك بيديك وبصمودك، وبتحدي جميع الصعوبات والمعوقات، ولا تسمح لأحد أن يغتالك، أن يحطم آمالك، النجاح في مجال تحبه، يجنبك الاكتئاب.

"العرافة"

جلست بأحد المقاهي على الطرقات العامة، حيث كل شيء يُباع، وكل نشوةٍ زائفةٍ قابلة للانتزاع، أتت إليَّ قارئة الفنجان حين رأت احتسائي لما فيه، وانتظرتْ حتى انتهيتُ منه، وقبل أن ينزع النادل فنجاني الفارغ من أمامي، صرخت باستماتة في وجهه..

ـ انتظر يا بُني! يبدو عليه أنه بائسٌ، أعطني بعض الدقائق لقراءة فنجانه البائس مثله.

ـ تفضلي سيدتي بالجلوس معه، ولكني غير مؤمن بتلك التخاريف، وصاحب الفنجان الجالس على الطاولة يقوم بالمراقبة ولا يصدر منه أي ردة فعل.

قامت القارئة بطرح سؤال عليه.. ما الذي حَلَّ بك يا بُني؟! وجهك شاحبٌ وتغمُره التعاسة!

قال لها ذو الملامح الباهتة: أنا لا أحب أن يتم وضعي تحت طائلة الأسئلة الحمقاء، فلتنهي عملك، ولتذهبي من هنا.

نظرت هي إلى الفنجان، وطال صمتها لمدة ربع الساعة، فنظرتْ له باستحياء قائلة: هناك قلب مكسور بداخل الفنجان، فهذا يدل على حزنك الشديد؛ فحاول أن تتماسك، وهناك أدلة على ذلك، وهي فراق أحدهم لك، ربما يكون صديقًا، عزيزًا، حبيبًا، رفيقًا، وهناك رسمة أخرى، هي عبارة عن شخص جالس وحيد لا يتحدث مع أحد ولا أحد يحدثه، وهذا دليل قاطع على استيائك، وأخرى عبارة عن صخرة كبيرة تحملها فوق أكتافك وأنت جالس مستاءٌ، وهذا دليل آخر على أنك تحمل همومًا ليست همومك، أنا هنا لكي أمارس موهبتي لا أحتاج للمال، أريدك أن تكون على يقين بأنك سوف تموت إن بقيت هكذا طيلة حياتك. صافحها بحرارة شديدة، وقام باحتضان تلك السيدة، وقال لها: هذا كل ما أريده، الحانة تلك هي المكان البائس، يحمل بداخله كل أناس وأجناس العالم أجمع، فلينصت الجميع الآن، اُنظر إلى الجانب الأيسر هناك، ستجد شخصًا جالسًا يبكي، ويترنح بجلوسه، ويتقيأ ويصيح صراخًا، يتألم والسُّكر لم يفلح بالنسيان، وجهه شاحب جدًّا ونحيفٌ للغاية، من شدة الألم، اُنظر أيضًا إلى الجانب الأيمن، هناك مجموعة من الشباب والفتيات يضحكون، دون هدف، دون تحديد موعد لأي لقاء، الأرواح هنا لها نصيب في الالتقاء، وفي

منتصف الحانة، حيث توجد طاولة واحدة، تجلس عليها فتاة تحتسي فنجان القهوة، وبيديها مُدوَّنة شخصية، تُدوِّن تصرفات الجالسين، لتكتب عنهم وتسرد مشاهد حقيقة، هناك راقصة ترقص وتتفنن برقصها، وهي تبكي كالأطفال، لا يعجبها حالها، صامتة ملامحها، تدل على ندوبها التي تحملها، مضطرة مضطربة، من مالك الحانة، ليتفوه بكلمة.. هناك رجلٌ ثري للغاية يدفع الكثير، اذهبي معه لمنزله، فرجاءً كفى هتك عرض الفتاة وهي عذراء.

- عليك أن تدرك بأن العرَّافة هي مجرد علم وهمي، يغتال عقلك لا أكثر، تقنعك بالوهم، وستظل عالقًا؛ لأنها تريد ذلك.

معك حق يا إيهاب، لأنني أحببت أن أستشيرها في أمرٍ عاطفي، أدركت ذلك حين ذهبت لها مرة أخرى، لدي وجهة نظر.. لكن سأشرحها لك بالنهاية.

- ماذا قالت لك؟!

حين ذهبت لها وأنا غضبان: أيتها العرافة! أريد أن أعرف.. ما الذي يمنعني من حُبِّها بالرغم أنها تحبني؟!

- سأنظر في تلك الكرة المُضيئة البيضاوية.

حسنًا، حسنًا.. أسرعي، وكانت تنتظر أيضًا أن أنتهي من فنجان قهوتي.

- أردفت قائلة: دعني أكمل عملي ولا تتعجل.

نظرت لها في تعجب! اتسعت عيناها بدهشة قائلة: لماذا؟ وصرخت بأعلى صوتها، يكاد أن يسمع مَن به صمم.

- انزعجت واضطربت، ما الذي يحدث؟

ستسكُن الأطلال، وقلبك لن تجده وستظل عالقًا، ستضعف في اكتشاف روحك من جديد، لن تقوى على فعل شيء، عقلك سيتشتت ما بين سياسة خلاياه المعقدة، ستمكث نحو المجهول.

- ابتسمت ابتسامة مُتصنِّعًا الثقة: "أيتها العرافة! لقد فشلتِ في إقناعي؛ لأنني رأيت على وجهك علامات استفهام، تدل على عدم مصداقيتك وشكّك بما تم طرحه".

قل لي يا صديقي العزيز محمود. وبعد أن انتهيت من احتساء فنجانك أمامها، هل نظرت بداخله؟

- نعم، هذا حدث، وظلَّت تتفوَّه بكلامٍ محفوظٍ، يدل على أنها لا تفقه شيئًا سوى الحفظ لا أكثر من ذلك، وغضبت منها أكثر، وقلت لها: أنتِ وأشباهك من الدَّجَّالين يدَّعون أنهم يعلمون، ولكن أنتم لا تعلمون شيئًا البتَّة، وعجزت عقولكم عن التفكير بالمنطق، ولكنكم تمكنتم من التوغل والضحك على عقول الغلابة، والأسوأ من ذلك هو التبرير غير المنطقي لما يحدث، فليس كل مَن في الحانة سيِّئًا، أنتم مَن جعلتمونه هكذا، جعلتمونا نشمئز من كل شيء حولنا، العرَّافة الحقيقة هي العادات والتقاليد التي ليس لها منطق ولا فكر حقيقي.

"ندبة"

منهار نفسيًّا يا الله، أعلم أن الحماقة تتوغَّل في جميع الأنحاء بداخلي، الانهيار أفضل من الانتحار كثيرًا، كم كنت أود أن أحظى بشيءٍ من الراحة الأبدية، ولكن الأمر متوقف على والدتي ووالدي، سوف يبكيان كثيرًا، وتنتفض قلوبهما خوفًا كبيرًا من ذلك المشهد، الذي هو بمثابة حياة أخرى بالنسبة لي، ولكنك تعلم يا الله أنني كفرت بالمشاعر المقدسة التي خلقتها داخلي، كفرت بالحب، ولكن لم أكفر بك؛ لأنك بعقلي وبقلبي، ولكن يا الله أنت تعلم جيدًا أن الحافَّة للمُتعَبِين أمثالي، رجاءً لا أريد سوى أن يكون بيننا لقاء جيد أو مقبول يا الله، واعذرني على الفوضى التي بداخلي، اعذرني! ولكنها أحبتني يا الله، كفرت بها وبصوتها الذي يدقُّ من خلاله نبضات قلبي، أعتذر يا الله على تلك

القسوة التي احتلَّت ذلك القلب البائس العاجز عن إعطاء الحب والحنان والعطف، والجنون هو للعقل؛ فليعبث به كما يشاء، العقل شاء والقلب أبى وتمرَّد ورفض، وانقلب ضد العقل، وكلاهما في صراعٍ دائم لا ينتهي، تبًّا وألف على النحو المبين بتلك السطور الحمقاء، فنجان قهوتي ذات النكهة السوداء التي أحبها، كسواد القلب الذي لم يكتفِ بالتعادل ما بينه وبين العقل، هناك شخصان بالداخل ولكنهما متناقضان للغاية، أحدهم يرحم، والآخر لا يرحم، أحدهم يُمَجِّد الجمال والآخر ينبذه ويمقته، أحدهم لا يبالي والآخر يهتم، تبًّا.. ماذا أفعل؟! جميلٌ جدًّا تلك الترهات، أعلن الانسحاب الكامل من ساحة المعركة الزائفة، يا سمو الأميرة، ذات التاج الذهبي المُرصَّع بالنجوم الذهبية، لقد جعلتِ الوهم يفتت ثنايا عقلك، التلذذ بالأذى انقلب ضدك وعليكِ، رائحة نرجسيتك تفوح أكثر فأكثر، المثالية أمر مُقزِّز للغاية، وهي من صفات النرجسية، التي تحتل المرتبة العُليا منكِ، فلا بأس بالطَّيف الذي يحوم بغرفتي؛ كسمكة القرش التي تحوم حول فريستها لتفتت عظامها، يؤسفني القول بأن سمكة القرش تستمتع بشرِّها ولم تكُن يومًا نرجسية، الأيام التي عشتها قمت بنسيانها تمامًا، لم يَعُد لديّ ثقافة التفريق بين خطئِي وخطئك، كلانا مُخطئان بشكلٍ أو بآخر، نبرات صوتك ما زالت تخترق الأجواء مع الطَّيف الذي يأتي لي كل ليلةٍ، أحببت ذلك الطَّيْف أكثر منكِ، لم أعد أحتاج إلى زعزعة استقرار القلب، لكنه يأبى الاستقرار، فتخلِّى عن رحيلك، أجلس يوميًّا على طاولتي المجنونة، وأضع بها زجاجة نبيذ من النوع الفاخر، كأسًا لي

وكأسًا للطَّيف، وفستانها المزخرف بالمجوهرات، عليكِ الاقتناع أو الامتناع عن الحديث عني، فالأمر لا يحتمل أي جسد آخر يشاركني غرفتي، وما أدراكِ بالغرفة! قررت الابتعاد فجاةأ لأنني لا أحب أن يحدث بداخلي فجوة، المشاعر لها وحدها، أصبحت لي وحدي، كما بالسَّابق، تبًّا لكِ! ما أحلاك أيها الطيف اللذيذ المشاغب! المتعب أحيانًا بالصداع النصفي الذي تفعله لي، ولكن لا بأس به، كم أدمنك يا طيفِي اللذيذ؛ بنظراتك التي تحمل الصدق بشرها.

- أركض نحو السعادة، قلبك يحتاجها، جسدك يحتاج أن يفيق، ولا تكن مثل العبد الذي يرى سيِّده رفيقًا؛ لأنه فقط يطعمه ويطعنه بنفس الوقت، يا ساجد! عليك أن تدرك مدى خطورة الأمر على صحتك النفسية.

لا أدري يا أشرف، الأمر خارج عن سيطرتي، جعلت مني شخصًا يتلذَّذ بالأذى، اعترفت لي أنها قامت بأذيَّة الآخرين، وأتت إليّ تحمل بيدها الورد، ولكنه كان مليئًا بالأشواك، لكنها لم تفلح، أدَّى هذا إلى بناء وَهْم بداخل رأسها، بأنني أحبها! واعترفت لها بأني أزدريها، أتفنَّن بتعذيبها نفسيًّا، كانت تريد الطاعة العمياء لها، ولكنني أتقنت عصيانها.

- ساجد، أتعلم؟! أنا أرفض منطق أن: "السيئة تعمُّ، والحسنة تخصُّ"، لسببٍ بسيط جدًّا، لماذا يتحمل الشخص ذنب الآخرين؟! ومن العدل أن يتحمل كلاهما العقاب، إذا فعلت شيئًا جيدًا؛ فالحسنة لك، وإن قمت بالعكس؛ فالسيئة لك أيضًا، تحملك لعقاب وأنت لا تعلم السبب هو بالأحرى ظلم، ولكن يد الظالم تلطخت بوحلٍ من القذارة.

الذراع الأيسر به ورد، والذراع الأيمن به سلاحٌ، إذًا لبَّى رغباته يهديه الورد، إن عصى أمره ينحر رقبته.. لماذا علينا الخضوع دائمًا يا أشرف؟!

- لن تتخلص ولم تتخلَّ عن أي شيء يحيط بك، محيطك مليءٌ بالعقبات سارية المفعول، كل شيء مزعج حولك، تراقب نفسك في المرآة، وتنظر إلى خصلات الشعر التي أصبحت بيضاء، تبًّا للإزعاج وكل ما هو سيء! أنتظر الموت بصدرٍ رحب، بحبٍّ، بكُرهٍ، بأي إحساس تحمله، فأنا عالق ومحتجز بأحلام اليقظة وكوابيسها، والنتيجة ندوبٌ لا يعلم عنها أحد سوى الله.

أتريد عناقًا أم شوكًا؟!

- بالطبع عناق، مَن الأحمق الذي يختار الاختيار الثاني؟!

أنت أناني! ماذا لو كانوا ممزوجين ببعضهما البعض؟

- منافق أنت! قذر خبيث!

أقوم بانتشالك من العبث.

- لا لا، أنت الذي تضعني تحت طائلة اختيارات لا تمت الواقع بصِلَةٍ. سطحيٌّ للغاية.

- لا أفهم.. ما الذي تود إيصاله لي؟

العناق ربما يكون زائفًا غير حقيقي، أما الشوك فهو الحقيقة بحدِّ ذاتها لا يتحملها أحد؛ لذلك أنت غضبت مني الآن، فأنت سطحي للغاية.

- تبًّا.

"الطبيبة آسيا"

أريد فقط أن أموت في سلام، لا أحب النزاعات، أحب سماع لحن الموت يتمدد بأذني من خلال السماعات، أريد الراحة الأبدية، أريد فعل كل شيء، طامعٌ أنا في حب نفسي؛ لأتجنب نفوسهم المريضة، والنهاية ستكون بغرفة تحت الأرض عريضة تسمى بالقبر، ولا أحب أي شر لا أحب الألقاب، أنا بشر لي مطالبي في الراحة لا أكثر، لي أحلام ما زالت لم تتحقق، وتغمُر ثنايا عقلي وروحي، ولا أحد يريد سماع بَوْحي، وفي ذات اللحظة لا أريد البوح، الفكرة تزداد أكثر لذة، حين تأتي لي وتتحكم بجميع خلايا العقل، وتقول لي: هيا قد أتى وقت التنفيذ، تبًّا! حين أجد الضغط مِن مَن حولي، يصور لي عقلي، ويضع روحي داخل المشهد سريعًا، حيث الذهاب إلى المطبخ وجلب السكين لقطع الأوتار أمام

جمهور غرفتي، نعم، والعقل يصور لي التصفيق على هذا الفعل، تبًّا مُجددًا؛ فهو يشجعني وأحاول جاهدًا تلاشي ذلك المشهد من رأسي، ربما سأذهب إلى الطبيب المختص، ولكن لن يفعل شيئًا، قمت بتجربة الأمر.. لم يفلح، تبكي عند قبري منتظرة حضور جسماني، وطالما سعيت للقدوم إليكِ؛ فاحظي بحروق نسياني، بكل بساطة أنا صورة وأنتِ برواز مكسور، مجرم قام بقطع جسدي؛ فأصبحت الصورة بها جزء مبتور، أنا لست من القوم الظالمين لأحتل قلبًا مفعمًا بالحياة، وأسلب إرادتها وحريتها إن لم نكن أحرار سويًّا، ضد تقييد الحريات، فالحب اختيار موفق لقلب يتحمل مسؤولية المحبوب، ولا يسبب له آثار جانبية كالندوب، ولا يجعله يتحمل فوق طاقته، ويجعل ذهنه يعاني من الشرود، عفوًا لا أستجيب لمطالب تحقيق الرغبات تحت طائلة الحب، وضد أي رغبة تؤدي إلى معاناة الشخص ويلجأ للندب، جندي على رقعة الشطرنج يريد احتلالًا قائمًا على المعرفة وماهية الأمور، يجب وضع الخطط المستقبلية لتتمكن من غزو قلب يعشق الحرية والحياة، لا شيء اسمه سيتغير بسببي، لا، هذا منطق أحمق، لا أحد يتغير بسبب أحد، فلا تكن مُتسلطًا لعينًا، تظن أنك على الحافة، بينما أنت بعمق القاع، لم أنَلْ شرف حضور عرضك؛ لأنه بدون إيقاع، مجرد حركات بهلوان وصوت جماهير مزيفة، تعلو أمام جمالك الزائل، كقارئة الفنجان يظنون أنها حمام زاجل.. وفكَّر لوهلةٍ بأن يجرب الذهاب إلى طبيب آخر ولكن ليس عابرًا، بل لديه طبيبة نفسية هي تراه صديقته، ولكن هو يراها بمثابة محبوبته، يفكر بها دائمًا، ولكنه كان

يخجل من أن يذهب لها بالرغم من علمها أنه مريضٌ نفسي، خجله مبنيٌّ على عدم ذهابه لعيادتها؛ لأنها لن تأخذ منه المال ثمن الجلسة، أمسك بهاتفه واتصل بها، ولكن لم تُجِبْ وقامت هي بالاتصال عليه، ردَّ عليها بصوت متحشرج: مرحبًا آسيا، أحتاج إلى الذهاب للكشف على نفسي، فأنا مُتعب للغاية، سأكون في العيادة في تمام الساعة الرابعة عصرًا، تصحبك السلامة، استحم وقام بتجهيز نفسه، ولبس ملابس ذات طابع حسن، يدل على أنه ذاهب لموعد غرامي وليس لطبيب، ظل يتسكع في الطرقات قليلًا حتى أتى الموعد المحدد، ولم يتفوه بأي كلمة غير: "مساء الخير! يا دكتور آسيا".

- مساء النور يا وحيد، عساك بخير.

لا أدري ما أعاني منه، لكني متعب جدًّا، وأحتاج إلى حلٍّ، فالأمر يزداد سوءًا، الخير أصبح خارج الإطار، المتصنعون احتلوا الكوكب، أصبحت وحيدًا بالفعل وليس مجرد اسم.

- أنت تفقد جانبًا من أحد جوانب حياتك، والجانب الآخر أظن أنك ناجح به.

لأنها ليست مجرد أحلام بل كانت طعنات بقلوبنا نسعى لتحقيقها، والحمقى بأمراضهم يسعون لتفكيكها، لا يفلحون إلا في دفن مواهبنا، ولكنهم الآن يُدقُّ على مسامعهم أسماؤنا، هذا لا يكفي، كنت أريدهم بجانبي يشهدون على نجاحي، شجعونني أكثر، الوحدة شعور أحمق بائس لعين عاجز لذيذ مميز.

- أنا بجانبك وأنت تدري هذا؛ لأننا أصدقاء، ودائمًا نتشارك الأشياء أيًّا كان ماهيتها.

حتى أنتِ لا تفهميني، انصتِي إليَّ، أحارب وأسعى جاهدًا، وأعمل وأدرس وأُنمِّي مواهبي، من أجل تلك اللحظة.

- لم أفهمك يا وحيد!

بكل بساطة أحبُّك.

- لا توجد مشاعر اتجاهك سوى أنك صديقٌ جيد، أما عن الحب فهو مجرد ترهات لا أكثر، الحب الحقيقي الذي يدوم هو حب الأهل والأصدقاء المقربين مثلك، أنصحك بكثرة زيارتي سوف أعالجك!

آسيا عفوًا، أقصد الطبيبة، علمتِ بأني مُتعب وما أعاني منه، أدركتِ جيدًا سبب عصبيتي التي لم تهدأ بعد، فمكنون النفس يحمل الكثير من فيض المشاعر المبعثرة، وتعلمين أمر مُذكِّرتي التي أدون بها اللحظات السيئة قبل الجيدة، الحزينة قبل السعيدة، القبح قبل الجمال.

- أنت تثير غضبي، أرني تلك المذكرة، وقامت بشدِّها بقوة من يديه، وقرأت بعض الصفحات، ونظرت له باستحياء: عقلك هو السبب؛ فهو يؤلمك كثيرًا، هناك جملة محتواها: "أنك لا تندم أبدًا، ولكنك تتألم، ولست سعيدًا وأنك تبحث عن رفيق"، المحتوى لديك مفقود ومشوش، تعلم أنني طبيبةٌ نفسية، وهناك الكثير مثلك يقوم بزيارتي يوميًّا، لماذا عروقك أصبحت بارزة هكذا؟

أيتها الطبيبة! الجميع يقول لي مثل هذا الكلام، سئمت منه ومنك أيضًا، الأطباء جميعًا يمشون على نفس خط السير، وأنا لنفسي أسير حول ترهات مشاعر لست مُتحكِّمًا بها ولم أتقبلها، كم كنت أود أن أحظى بطبيبة شريكة لحياتي مثلك، ولكنكِ تودين أن تحصلي على شهادة تقدير لتعلقيها على حائطك المهترئ.

- أطفأ سيجارتك هذه، ولا تدخن في عيادتي.

هاهاها.. دائمًا تلقون اللوم على رائحة الاحتراق، ولا يعلمون أنهم مصدر الاحتراق، صحيح.. كيف للمريض أن يحب طبيبتهُ النفسية؟!

- لا عليك، هدِّئ من روعك؛ يجب عليك أن تقول كُل ما تشعر به، وكل ما يتعلق بك، علاقاتك الاجتماعية، ودَعْك من العاطفية، وعلاقتك مع مدير العمل الخاص بك.

مديري يُريد أن أنظف له سرواله، وأنا لا أريد ذلك قط، وأيضًا لا أحب أن أكون سببًا في أذية الغير.

- هل فكرت بالانتحار يومًا ما؟

كثيرًا، وحاولت من قبل، لكن محاولاتي باءت بالفشل.

- أخرج كل ما بداخلك!

يكفي هذا، ولكن ذلك الطوق الذي كنا نعتقده بأنه الناجي الوحيد، التف حول عنقنا لتلفظ أنفاسنا الأخيرة، النجاة أمر مبهم بالنسبة لي، النجاة الحقيقية هى أن ننتشل أنفسنا من مستنقعاتهم.

"فلسفة صرصور"

أتأمل حركة الصرصور داخل غرفتي، أعتني به جيدًا، أرى شاربه المكون من شُعيرتين طويلتين عن جسده، لكنه لا يطير، أضع أمامه ورقة تسد طريقه عن السير، يتوقف لوهلةٍ ثم يُدرك أنه يجب عليه التحرك في أي اتجاه، سواء الأيمن أو الأيسر، وكلما يحاول الهرب يجد نفسه محاصرًا، ويجاهد في سبيل النجاة، يا له من ذكي! نعم، أي حشرةٍ أو حيوان هو بالأحرى يمتلك ذكاءً ربما يفوق قدرات الإنسان، ولكن سيظل الإنسان هو الأذكى، لا أدري لماذا؟! لكنه مُؤذٍ في أنه يستخدم قواه في حصار الراحة النفسية للصرصور، يجعله يشعر بالخوف الشديد، ومن سوء حظه أنه لا يمتلك جناحات يستخدمها للهرب، يا للتعاسة! وتبًّا للملل أيضًا الذي يجعل الإنسان أتعس من تلك الحشرة،

يُسلِّي وقته في دس الرعب بداخله، مخلوق لا حول له ولا قوة، لا يكفي هول شعور ذلك الوحش الذي يمتلك الأيادي، لا يكفيه تربصه يريد المزيد، وكأنه يدخل الحرب العالمية الثالثة، مخلوق لا يقوى على فعل شيء، سوى محاولاته التي باءت بالفشل، ولكن لا يكُفُّ عن المحاولة، ويبحث عن الأمل المُعلَّق في قشة، الشيء الوحيد الذي سوف يوقفه عن إيجاد الأمل الذي ما زال مُبهمًا ولا يعلم مصيره المحتوم هو الدَّعْس، ياللهول! رأسه ضئيل الحجم، أصغر من عقلة الإصبع، وبكل تأكيد يستخدمها في الحصول على الإفراج عن نفسه، معتقل بدون ذنب، وفي وضعه الحالي لا يمتلك سوى الندب، وعلى يقين تامٍّ أن تفكيره يؤلمه وبشدة، ويتوغل الألم بداخله ويفتت ثنايا روحه، الإنسان يجد ضالته ويشبع رغباته، والطرف الآخر يرى نفسه مظلومًا تحت طائلة اختيارات ذلك الناضج، استخدم الصرصور الخداع بعد أن وجد الفشل حليفه، قرَّر أن يجعل نفسه ميتًا من التعب، وقلب نفسه، وأصبح على ظهره وامتنع عن الحركة، وضمَّ أرجله في بعضها البعض، وحين يهزُّه بالأوراق.. ولكن لا حياة لمَن تنادي، "إن لم يكُن هناك سلبية؛ لم يتكون عقلٌ متمردٌ"، نحن في مجتمع قامع للحب، لكل شيء مُبهج للحريات، هذا أمرٌ واقع نابع عن عادات وتقاليد تسعى لهدم الأشياء الصغيرة التي هي مجرد حقوق، شعور الآخرين بأنك غير مرغوب فيه، هذا يخلق التجاهل، عليك اختيار عدوٍّ صادقٍ أفضل من اختيار صديقٍ مُزيَّفٍ، هذا العالم لا يُشبهنا، خلقنا الله دون بقية المخلوقات؛ إذ إننا نمتلك العقل، فلماذا نتخلى عن

إنسانيَّتنا؟! كائنات متوحشة في صورة بشر، رؤية الصرصور ونظرته لنا هي كالتالي، يشعر بضآلته وعدم رغبة الآخرين به، منبوذٌ مثل شيطان خفيٍّ، يراه شخصٌ يتحول إلى ذئبٍ عند اكتمال القمر، ويصبح مُستذئبًا بأنيابه الحادة، وشعره الكثيف بُنِي اللون يا للبشاعة! لماذا عليَّ أن أتحمل القسوة بجسدي الضئيل؟! الضمير، الخير، الوُدُّ، الحب.. قد ماتوا جميعًا في سبيل نزوات بائسة لا رحمة لها، فالانتصار ليس بُرهانًا على النجاح، هناك الكثير من الصراعات والمُؤثِّرات الخارجية التي هي السبب فيما نعاني منه بداخلنا، التعب لا ينفي حقيقة النجاح الساطع، القمر معتمٌّ، فاستمد نجاحه من شروق الشمس، فأصبح مُضيئًا، دقَّ هاتفه الجوال، وقبل أن يجيب دعس الصرصور بقدميه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، ردَّ على هاتفه.. مرحبًا يا عيسى، نعم، على موعدنا اليوم في المقهى المعتاد الذي يبعد عن منزلي، قرابة ربع الساعة، سأقوم بلبس الحذاء فقط، أغلق باب الشقة بغضبٍ شديدٍ لا مبرر له، ويدندن ويقول: لم أستمتع اليوم! لم أُشبع رغباتي، في أذيَّة الأضعف مني، إنها الخطيئة الأصلية التي تغمُر الإنسان، الفضول لمعرفة ماهية الأشياء، مغامرةٌ على متن القارب السريع، مستمتعين بسرعته حتى أتت موجة عالية شديدة القسوة، إنها اللهفة في اجتياز قسوة ضربتها، وأدَّى ذلك إلى مصرع شخصين، بعمق المحيط، أحدهم أصيب بجرح عميق ينزف الدم منه دون أن يشعر، حتى انجذبت شهوة أسماك القروش لرائحة الدماء، فريستان دَسِمتان جعلتا القروش تحوم حولهما دون استثناء، دون رحمة بالأحرى، لا تعرفانهما بحكم طبيعتها، تعرف فقط أن تشبع

بطونها باستخدام فكِّها المفترس، أحمقٌ من يدرك بأن السعادة هي الابتسامة لا أكثر من ذلك، بفعل أي شيء يشفي غليله، وصل إلى صديقه ووجده ينتظره.

مرحبًا يا ماجد، كيف حالك يا صديقي؟

- بخير، كيف حال رأسك الذي يحمل فكرًا أراه عقيمًا مثلك؟!

هاهاها، إنها مجرد رؤيتك لا أكثر، ربما سندخل في نقاش تعيس، وفي النهاية ستخرج منهزمًا.

- أستعدُّ للعودة للوراء من أجلك يا صديقي.

لا، هذا ليس صحيحًا، كَوِّن لنفسك شخصية مستقلة ذات فكر متجدد، وليس مُتحجرًا.

- بالفعل، ستفوز أنت هذه المرة.

ليس هناك سبب للفوز أو الخسارة، علينا فقط احترام بعضنا.

- عيسى! أنا أعلم بشأن الحيوانات أو الحشرات التي تقوم بأذيَّتها، فلماذا لا تعطي لها احترامًا يستحقُّ؟!

هكذا سيكون نقاشُنا حادًّا بعض الشيء، أصبحت تفكر، قُلْت لك بأن الفوز أو الخسارة هو موضوع نسبي لا أكثر، ولكن سوف أجيب عن سؤالك، أفعل هذا من أجل فهم ماهية تفكيرهم في تحركاتهم، وأجاهد نفسي في إخراج منهم فلسفةً ما، فاليوم قبل اتصالك قمت بدعس صرصور، ولكن فهمت بعض الأمور عنه.

- أنا أكره تلك الحشرة، أحسنت صُنعًا.

لكن أتألم حقًّا حين أمارس تلك الأفعال، رغبتي أقوى ويصاحبها فيما بعد الندم، وكل هذا في سبيل تطوير عقلي.

- ما الذي قمت باستنتاجه؟

بحثت في كل زاوية من زوايا الغرفة من أعلاها لأسفلها، حتى وجدته وقلت له: مرحبًا! صرصور غرفتي، أين أنت يا ضئيل الحجم؟! تجيد الاختباء جيدًا، أتأمل كل تفصيلة بك، وأنت تحرُّك شاربك الطويل بينهما رأسك الصغير، أي جسد غريب عنك وأكبر منك يستطيع دعسك، أرى أنك مظلوم للغاية، أنت تسير بكل استقامة ولا تؤذي أحدًا قط، ولكن مَن استقام يا صغيري؛ سيلقى حتفه بدعس الأحذية.

- لذلك قتلته؛ أليس كذلك؟!

نعم، وبعد أن قاموا بالدعس عليه بالأحذية، دون رحمة، دون شعور، دون أدنى إحساس، يشعر أنه وليد الفشل، ولن يكُفَّ ضميره عن إحساسه بالذنب الذي لم يفعله؛ لأنهم متمكنون بجعلك تشكُّ في نفسك، ولا تكُف عن التفكير، ولكنك بالفعل ستصبح أكبر مذنب على الإطلاق، والسبب أفعالهم ونواياهم التي أخذتها منهم، بعد أن كنت مظلومًا سوف تكون ظالمًا بجدارة.

- ظهرت لي أبعادك الفلسفية قليلًا!

جيد، وبعد أن أصبح الصرصور ظالمًا بجدارة، قرَّر اتِّخاذ الظلم مجرى حياته، بتأثير الدعس بالأحذية، وظل يدافع عن الظلم باستماتة بل

ويمارسه أيضًا، وليس هذا فحسب، بل قال مقولة وهي: "الظالم الذي يظلم لو أصبح مظلومًا ذات يوم؛ فهذا قمة العدل"؛ لذلك لن يكفَّ عن ممارسة الظلم اتجاه مَن ظلمه.

"العبودية والتحرر"

الأوغاد المُكبَّلون بالأصفاد الفولاذية، كم يروق لي الأمر أن أحظى بشيء من التمَيُّز في تحرير تلك الأصفاد، والتعذيب اللا متناهي، إطفاء سجائري في أجسادهم، ليس هذا فحسب.. فمَعِي ثعابين سامة، وهناك في آخر الغرفة صندوق مفتوح سقفه، سأضع به الضحية وأخرج الثعابين السامة؛ لألعب على الوتر النفسي، ومدى قوة تحملهم، الثعابين كائنات دفاعية وليست هجومية، في تلك اللعبة تحتاج إلى التفكير المنطقي لاستخراج نفسك، إن قاومت سوف تُلدغ، إن لم تقاوم ستنجح، وسوف يتم الإفراج عنك، أجيد التسلية والمرح لأبتسم، بلا استثناء، فجميع الأسر بأكملها تحمل الثناء، حاملين المواصفات

العالمية والمزايا أمام المارة، داخل المنازل تحدث مهازل، اغتصاب زوجي، وعدم احترام رغبة الزوجة، ما هذا الذي يحدث؟! لماذا متطلبات الرجل تقع تحت طائلة الزواج؟ وعدم احترام شريكته في الحياة، التي من المفترض أن تنجب له أطفالًا، ما مصيرهم حين يجدون ازدراءً لأمهاتهم؟! حينها سيلجأ الطفل إلى كره أبيه، وتمجيد والدته المظلومة، وحين يكبر وينضج، سوف يعامل والده بكل قسوةٍ، وسيحنُّ لكل امرأة وليست والدته فقط، سينبذ الذكور، سيطعن كل مَن يمارس العنف ضد أي امرأة، وليس هذا فحسب، بل سيكون قادرًا على تحمل المسؤولية الاجتماعية كاملة بكل بساطة؛ لأنه وجد سنده يجيد كسر مرايا المنزل، ويحطم التلفاز، ويمنع شريكة حياته من النزول؛ لأنه لا يثق، بناء المجتمع يبدأ بالاحترام، ولا يبدأ بالإجرام، البداية تكون من تغيير أنفسنا، وتطهير أفئدتنا وأرواحنا، وألَّا نخضع لنزواتنا التي ليس لها مبرر سوى أنها جريمة يجب أن يحاسب عليها ممارسوها، العلاقات بكافة أنواعها هي التي تبني المجتمعات، وإن فسدت فسد المجتمع، والمأساة الكبرى حين يتم إنتاج جيل كامل فاسد، قامع لكل شيء بناء على المظاهر الخارجية التي بالأحرى هي كاذبة، الخضوع والانجراف نحو شهواتنا عواقبه وخيمة، والمأساة الكبرى أن ذلك الابن سيحبُّ فلسفة والده الساديَّة، في تعذيب السيدات، بدنيًّا ونفسيًّا، وأيضًا جنسيًّا، سيجعل من ديكور غرفته مصحةً للتعذيب، وبها الكثير من السلاسل المعلقة، وكرسي كهربائي يضع عليه الضحية وبضغطة زرٍّ واحدة تكبل بالأصفاد، بدايةً من عنقها ويديها وأرجلها، في عالم

الجريمة لا يوجد ما يُسمى بالوفاء والإخلاص، مَن يحمل كلاهما بداخله، حتمًا سوف يُقتَل، بحجة لين القلب والتماس العذر لمَن يمارس ضده العنف، هكذا فعلوا ذلك مع الجميع، قدمت لهم الحب فحصدت كرههم لك، سوف يهابونك إن كنت رئيس العصابة، هناك شيء ضائع، ليس نظر يعقوب على فراق ابنه يوسف، لا بل هناك ما لا أعلمه بداخل النفس البشرية الحاملة لأمراض كثيرة وليست العضوية منها فقط، أمراض عَجَزَ عن تفسيرها الأطباء، فالزواج إنجاز تعيس للغاية، يسعى إلى تحقيق أهداف غير سامية كالإنجاب، يَدقُّون باب مقبرة لطفلٍ أتى في زمنٍ لا يُعاش، في سبيل إسعاد ذواتهم على حساب الأبرياء، البشرية أنانية، الصداع ليس في العقل؛ لأنه مفتور، إنه بداخل القلب المبتور، كمسرحية هزليَّة لا تفقه شيئًا البتَّة؛ هم الذين يزرعون النبتة بداخلك، لكنها فاسدة للغاية، تسبب لك التسمم، وسوف يصيبك أشواكها، وتتورَّم أطرافك من شدة حبك لهم واحتكاكك بهم، وستلجأ إلى استئصال تلك الأورام مع مرور الوقت، واتَّجه نحو ساقية الصاوي بالزمالك ليستمتع بالتأمل لنهر النيل، يحتاج إلى صفاء الذهن، وبات يفكر عن تلك المعضلة والعقبة المنتشرة داخل معظم المنازل، وفجأةً وهو جالس رأى شخصين.. سمع نقاشهما رغمًا عنهما، الرجل يقول لها: لا تذهبي إلى العمل مرة أخرى، فأنا أغار عليكِ، ربما تكون زوجته، ويقول في نفسه: لماذا يجب على المرأة أن تجلس دون عمل وتكون ربَّة منزل؟! بإمكانها أن تؤدي عملها على أكمل وجه، من تربية الأطفال... إلخ، لم يحتمل غضب ذلك الرجل، وحزن المرأة الشديد

الذي يظهر على ملامحها، تدخَّل وجلس معهما قائلًا: أعتذر عن تَطفُّلِي هذا، ولكن لم أحتمل سماعكما، أنت تنبذها أمام الجميع، صحيح، ما اسمك؟

- عماد، وهذه زوجتي تغريد، ماذا تريد؟!

أهلًا بكما، اسمي هو سليم، هناك بعض المفاهيم الخاطئة التي تجعل منك شخصًا ذكوريًّا، بناءً على إرضاء رغبة المجتمع، الاحتمال الأكبر لإنصاتك لترهاته، هو الحفاظ على صورتك أمامه ومكانتك الاجتماعية كذلك.

- أنت تعاقبني، طامعٌ في تغييري، هي لا تحتاج لأي شيء، جميع مطالبها مجابة، لا أقوم بحرمانها لكي تعمل، هي تحمل طفلنا بداخلها؛ لذلك يجب عليها الامتناع عن العمل، لتهتم بالزائر الجديد القادم.

اهدأ أرجوك، أنت تشعرني بالإحراج، فكِّر لوهلةٍ ثم عليك تدارك الأمر، الذي سوف يرتفع من خلاله شأنُك، إن كنت تبحث عن مظهرك الخارجي، الذي سوف أقوله لك هو ما سيحافظ على ما تريده.. عدم استطاعة احترام المرأة، عليك تركها، لا تنبذ أفعالها، لن تستطيع التحكم في تفكيرها، تفرض سلطتك التي أعطاها لك المجتمع الشرقي بأنك كاملٌ، وهي يغمرها النقصان، أصبحنا مثل السفينة ذات الثقب، وتستعد للغرق بصدرٍ رحبٍ، وفي ذات الوقت أنت غافل عن حمايتها من كل ما تتلقاها من بداية استيقاظها حتى انتهاء يومها، فصمتًا رجاءً على أفعالكما وعن السعي بإلقاء حتفها، ارتقيا، فقد أصبح القاع

مزدحمًا بل أصبحنا بعمقه، لا تُركِّزا على حياة الآخرين، ودعوا الخلق للخالق، ولن نستطيع تغيير مفاهيم من منظور كل شخص يرى الزاوية من تفكيره وثقافته، المرأة التي تضحي نادرة كلوحة فنية؛ قام برسمها فاقد البصر، رسم بمشاعره وقلبه يعتصر حبًّا لها، رسمها ولم يراها، ولكنه رسم حنانها.

- لكن الزواج أكبر إنجاز في تاريخ البشرية؛ لأنه بمثابة مشروع، يظل الإنسان يعمل ويواجه التحديات من أجل استقراره.

منذ ولادتنا تم وضع الإكليل على رؤوسنا جميعًا، طالما رأيت أن الزواج مشروعٌ سيكون فاشلًا حينها، ولن ينجح وسينتهي بالطلاق، عندما تفكر أن تفتح مطعمًا تبدأ بالتفكير في مكانه المناسب، وما هي المشاكل التي سوف تواجهها؟! وما هي الفئة التي سوف تجلس بالمطعم؟ هل سيحترمون الجالس بالطاولة المجاورة لهم؟ أم سوف يتم إزعاجهم؟ هل سيكونون عائقًا في نجاح المطعم؟ والكثير من الأسئلة حول ذلك الموضوع، وبما أنك أطلقت على الزواج مشروعًا، عليك وضع تساؤلاتك في الحسبان، هل ستكون جديرًا بالثقة في الحفاظ عليها؟! هل ستعطي لها الحب مثلما فعل أهلها أم لا؟! هل ستسلب احترامها لذاتها ومكانتها الاجتماعية؟! هل ستكون مجرد عائق لنجاحاتها؟! هل ستحترم رغباتها؟!

- حسنًا يا سليم، ما الذي سوف يجعل من الزواج ناجحًا؟

الاختيار الصحيح، تقبل السلبيَّات قبل الإيجابيات؛ لأن شريك الحياة بمثابة حياة كاملة، ولا يجب على شخص يبدو عليه النجاح والتربية السليمة أن يكون سببًا في خذلان الطرف الآخر، فقد سعى أهلها أيضًا في الحفاظ عليها من كل مكروه، جعلوها ذات شأن، فالنجاح لا يقتصر على الرجل فقط، لقد تركت بيت أهلها، وقبلت أن تصبح زوجة لك، فلا تكن مُتسلطًا عليها، هي بكل تأكيد ستصون الوُدَّ ما بينكما، ولن تفعل شيئًا يغضبك، يجب عليك أن تكون سندها الثاني، ولا تقف أمام نجاحها ورغبتها في الصعود أكثر؛ لأن هذا سيكون مفيدًا لكما، ولا يوجد ما يسمَّى بتغييرها من أجلك، لا، بالطبع هذا الأمر خاطئ، وأنت لن تتغير من أجلها، وعلى أطفالكما أن يتعلموا الإحسان إلى المرأة، ليصلح المجتمع ويرتفع شأنه، الحب كذبة؛ والزواج أكبر خدعة على الإطلاق، من أجل الحفاظ على نسل البشر من الانقراض، فعليك بالفعل أن تحافظ بإنتاج جيل واعٍ ومُتفهِّمٍ، ويتقبل كل الآراء.

- ماذا لو رزقني الله بطفلةٍ؟! كيف سأحافظ عليها من السلبيات التي تتوغل بالنفوس المريضة؟ وأنت تعلمها جيدًا لا داعي لتوضيحها.

عليك أن تشترك لها في أحد النوادي الرياضية لألعاب القوى، "كراتيه، كونغ فو، بوكس"، أي شيء يعزز ثقتها بنفسها، ويجعلها جريئة لا تخاف، تعلمها المواجهة، ويتم تثقيفها من خلالك وقارئة جيدة؛ لأن القراءة تساعد على بناء الفكر لدى الإنسان، وحين تطلب منك معلومة أيًّا كان نوعها عليك أن تكون مُدركًا لعقلها الذي ينمو يومًا بعد يوم، وإن كنت لا تعلم تلك المعلومة قم بالبحث عنها لتشفى هي من

التساؤلات التي تحوم حول عقلها، والرياضة لا تقتصر على الرجال فقط، ولأن الواقع قذر فهذا سيجعل منها، وبالأحرى، أنت ستجعلها بطلةً في عين نفسها، فهذه حياتك أنت وليس حياة المجتمع، ولا يصح أن يتدخل بها أحد، وانتهى النقاش بمقولة قالتها تغريد، لسوزان فورواردز: "إن الطفل الذي أساء له أبواه لا يتوقف عن حبهما، بل يتوقف عن حب نفسه".

"الغجرية"

طريف حقًّا، تشحذ ضحكاتك المزيفة لكي تظهر بشكلٍ يليق، لا تتحمل نظرات الشفقة، وهنا في محاكم الأسرة الجميع يشفقٌ على نفسه تبًّا للنفقة، أمام الجوامع والكنائس والأماكن الأثرية تجد على أبوابها مَن ينظرون على أنفسهم بشفقة، لا تتسرع، لا تتصنع، لا تأخذ الأمور على محمل الجد، لا تتجمل لا تحمل العبئ على عاتقك، لا تُجِب على اتصالات لا تروق لك، أغلق هاتفك، لا تكُن هم كُن أنت، تدخن بشراهة، ولا تكترث لصحتك، تموت ببطء، حتى النيكوتين بجسدك لم يعد له مفعول قوي، أصبح ضعيفًا للغاية أمام شراهتك المفرطة له، وتريد أن تقوم بغليانه وتحتسيه دفعةً واحدةً، ليقول الطب الشرعي: مات بجرعةٍ زائدةٍ من النيكوتين، عليك النهوض والمحاولة مجددًا،

وتقول: الأمر لا يفلح، تحكي أنك لمست أطرافها، شعرت بنبضها، وجدتها ترتعش، لا تُبالِ لا تهتم، الكوابيس تراوضك، خوفك يمنعك من البوح بالحب، وتحمل ندوبك، وتضيء شموعك، ماكثٌ أنت بغرفتك؛ تخشى الجدران من نشر أسرارك، سوداوي لعين، أحمق تتبجح، تكابر مشاعرك، تصاب بالغرور، تريد كل شيء وتعلن انتصارك، ومن لذتك المفرطة أصبحت مكتئبًا وأعلنت خبر انتحارك في رواية أحدهم، لا أحد يشعر بما تعاني منه بداخل أعماقك؛ أصمت للأبد، كالكاتب الذي يتفتت بثنايا الورقة، يبحث عن أمل يشبع ريقه كنهدٍ يروي ظمأ الطفل، يتجول داخل الغرفة، ينتظر الفكرة تأتي له، يبحث بداخل اليأس والظلام الدامس، ليخرج ما بداخله من ألم يكتبه واكتئاب وفنجان قهوته القاتم المثير الذي يشفي كل ألم بذاكرته، ثم يذهب للمرحاض، يصنع من الورق مراكب عائمة بداخل البانيو، يضغط على رأسه بشدة وعروقه بارزة ليهدئ صداعه النصفي، الذي يكاد أن ينير جمجمته، الاحتكار للأفكار واقعها صراعات نفسية بحتة تحاكي معاناة الكاتب، ونهايتها انتحار مع سبق الإصرار والترصد، والسبب خياله الذي يعبث بخلايا عقله، أبكم يكُتب حروفه، يفضلها عن حديث بائس، لم يقدروا ظروفه، دائمًا يرى بينه وبينهم حاجزًا، يبكي وحيدًا مع ندوبه، لا يهاتف أحدًا، يتردد عاجزًا، تريد فقط أن تموت في سلام، لا تحب النزاعات، تحب سماع لحن الموت يتمدد بأذنيك من خلال السماعات، تريد الراحة الأبدية، تريد فعل كل شيء، طامع أنت في حب نفسك، لتتجنب نفوسهم المريضة، والنهاية ستكون

بغرفة تحت الأرض عريضة تسمى بالقبر، ولا تحب أي شر، لا تحب الألقاب، والجملة التي ترددها بأنك بشر لك مطالبك في الراحة لا أكثر، لك أحلام ما زالت لم تتحقق، وتغمُر ثنايا عقلك وروحك، ولا أحد يريد سماع بوحك، وفي ذات اللحظة تفضل أن لا تبوح.

- يا سيد لقد قامت بأذيتي نفسيًّا، لأنها كانت تدَّعي المثالية، وهذه صفة من صفات الشخصية النرجسية، لذلك أنا لم أُرِد أن أبوح لأحد ولا الخوض في تجارب جديدة، سأجلعها تبكي عند قبري منتظرةً حضور جسماني، وطالما سعيت للقدوم إليها؛ فلتحظى بحروق نسياني، بكل بساطة أنا صورة وهي برواز مكسور، كمجرم قام بقطع الجسد؛ فأصبحت الصورة بها جزء مبتور.

لكن يا عديم الفائدة أنت، الوحدة شعور أحمق، بائس لعين، عاجز لذيذ، مميز، ولكنك اخترت الندوب، يا سيادة الكاتب، الصديق رضا.

- حديثك معي يدل أنك لا تتحملني، تتحدث بنبرةٍ حادة، ماذا دهاك يا سيد؟

لا شيء مطلقًا، ولكن الإنسان بطبيعة الحال يظل يُعافر ويغتال نفسه، حتى يحظى بالأسوأ.

- هذا صحيح، ولذلك الأفكار الانتحارية استهدفت قوات العقل، إما أن ينفجر بسببها، إما أن تموت بكامل قواك العقلية، وهذا يستحيل؛ أو سيبحثون عنك ويجدونك مشنوقًا.

لأنك قمت بالاستسلام لها، وجعلت من الاكتئاب ليتحكم بك، ولا تقتنع بوجود المحاولة في أوقات الذروة، التي سوف تنتشلك من الدنيا، إن لم يكن لديك ثقافة المواجهة، أمام كل مَن لا يروق له حالك.

- الوجود مثل العدم، لم يفلح الندم، هالك في بحر البؤس، التفكير اللا موجود يؤنس.

لأن صرخة الألم لا تخرج بصوت، ولكنها تتفنن بتعذيبك داخليًّا، كفيلة بتدمير خلايا العقل، والشعور الدائم بوخز القلب وكأن رُمْحًا أصابه.

- دائمًا تقول: إن الأمر لا يستحق العناء، ولكنك تضع نفسك تحت طائلة قانون التشتت، والتظاهر بالتشبث، وأنت هشٌّ كئيب سوداوي، أحمق أحيانًا، فلا بأس من ذلك، دع الأمور تأخذ حيِّزَ التنفيذ، وسينتهي بالمقصلة.

يرى الجميع لا مبالاة مني، ومن جهة أخرى الجانب الذي لا يعرفه أحد، أني أكون أشد منك اهتمامًا، في أشد الحاجة إلى صلاة الاستسقاء طلبًا لنزول الغيث، كما الدموع، أتقيد بغرفة مليئة بالشموع، أقوم ببعض الطقوس والعادات الخاصة لطلب شياطين الإنس؛ لأقوم بعمل محرقة بالغرفة، ليقتنعوا أني أشد اهتمامًا في حرقهم.

- حسنًا يا سيد.

قل لي: يا رضا، - ماذا لو وقع الكاتب بحب غجرية؟

أوقعت الفتاة بكاتبٍ ما بحبها، وتفننت بقراءة البخت، وهذا ما جذب انتباهه، وهو كاتب يجيد قراءة الأفكار؛ فأدهشها بأفكارها التي تحملها له، صمتت قليلًا ولم تظهر أي رد فعل له، ولكن عينيها قامت بفضح مكنونها، ادِّعاءات باطلة وأخطاء شائعة تحملها بخفة شديدة اللهفة في قراءة البخت، وقام باصطحابها للغداء سويًّا على اليخت، في إحدى بقاع المحيط، وهي للأسف لا تعلم أنه حويط، وكأنه الدَّجّالُ الذي يحفظ نفسه من العبث به، وهي كانت عمياء للبصيرة، ولم تحمل المناعة ضد ذلك الدَّجّالِ، سألها عن مواضيع مثيرة للجدل حول العالم، لتقدم المساعدة له في الإجابات الشافية، وهو يقرأ أفكارها المُقيّدة للحريات والحقوق والواجبات الإنسانية، قالت: يجب عليّ أن ألقيه بالمحيط؛ ليتخلص العالم من أفكاره التي يكتبها، ويصفق له الجمهور، وفي حين آخر تريد الحصول على جمهورٍ بنجاح كاذب، يحمل ما بين طياته الكثير من الحب المزيف، سمع كل حرف داخلها، وقام هو بإلقائها، وأصبحت وجبة دسمة لأسماك القروش، وأصبحت أيضًا إحدى الشخصيات الثانوية لروايته القادمة.

"المقهى"

كان يشاهد التلفاز، وهناك جلسةٌ ما تُعرض وفي نهايتها:" حكمت المحكمة حضوريًّا "إعدام"، وتخيل نفسه مكان ذلك الشخص الذي سوف يلقى حتفه، أي إعدام أيها القاضي؟! نفسٌ لا تَقْوى على فعل شيء، تتجاهل كل عقبة من عقبات الحياة، تدعو الله.. فكيف تنهي حياته بإصدار حُكم؟! لا أهتم؛ لأنني ميتٌ بالفعل، نهشوني، فعلوا ما لم يستطع فعله أي قاضي، سوى إصدار الأحكام، كطلقات نارية، وهناك نفسٌ تُعَاني من زحام شديد بأشياء بشعة داخل رأسها، نفسٌ كانت ستصدر حُكم الإعدام على نفسها منتحرة خنقًا، أيضًا، وبالفعل قامت بتحضير البذلة الحمراء، ولكن بالإضافة أن تلك النفس الهشة ستكون

ثملة تمامًا لكي لا تشعر، سُحقًا.. كم أحبك أيها القاضي؟! لأن حلمي الوحيد الذي تحقق هو "الإعدام".

كنت أجلس معهم على نفس الطاولة، ونلعب الدومينو ونلعب الشطرنج، آه! سُحقًا حين تمادى الجلوس لبضع ساعات، ويغمُرها الضحكات وقلة "القيمة" والسَّب والشتم، وتلك الأسباب أنهت كل شيء، هناك مشكلة ما حدثت مع أحدهم فأصبح حديث المساء، ويغمُرني الصمت؛ لأنه دائمًا حليفي، وابتعدت، ومن ثم عُدتُ مجددًا، والجلسة هي هي لا تغيير بها، وحين أمسكت بهاتفي وهم يتحدثون أصبحوا يسبون ذلك الصمت؛ لأنهم يرون أنني لم أُعطِ لهم اهتمامًا قط، ولكن كنت أمسك بهاتفي، أتظاهر بالانشغال واللا مبالاة، وكنت أنتظر منهم الاشتعال، كنت أريدهم أن يفهموا صمتي، أنني لا أريد منهم أفعالهم وحديثهم عن الآخرين، أمقتهم بشدة، ولكن الذي حدث أنهم سطحيون للغاية، فأصبحت أنا حديث المساء، قال أحدهم: إنني لا أصلح للصداقة، وكلاهُما مُتَّفقان على هذا، ونعتوني بالجنون، آه! مازلت أحبهم، ولا أحمل مكروهًا لأحد منهم، ليس لدي أي مشاكل، ولكن في ثلاجة منزلي، هناك أرز باللبن أحبه كثيرًا، يدركون بأنني أجلس أمامها للتسلية بأكله، لم يفهموا اختلافاتي، لم يفهموا التغيير الذي حدث لي، وكانوا السبب في ذلك، لست مَلاكًا، ولكن أنا إنسان يحمل الصواب والخطأ، ويأكل الأرز باللبن، سوف أشعل النار حتى تتوغل وتمتد لسقف السماء، الندم لا يفيد قط، بالرغم من أن البُعد مُخيفٌ ومُربكٌ، لكنه مريح أيضًا، أيها التاجر للأعضاء البشرية، سأكون

الأكثر مبيعًا، جسدٌ هزيلٌ، سهلُ التقطيع، ولكنه يحمل قلبًا مُتألِّمًا، ربما تجد به شروخًا، والحنجرة كذلك، وبه رئتان مليئتان بالنيكوتين، ستجد المزيد من السُّحب الدخانية داخلهما، ولكنهما يعملان بشكل جيدٍ، أنصح أن تأخذ العقل ليستفيد منه البشرية، وخاصةً أنت أيها التاجر؛ لأنه سوف يؤلمك، سيكون نصيبك أحد فصوصه التي تحمل اللعنة، مثل لعنة تفكيرك، أيها الأحمق، قدَّمتُ استقالتي، والطبيب الذي يحمل شهادة تقدير، وأنه أشهر جراح في الوطن العربي، لم يقدموا له شهادة انعدام الضمير، فأصبح أكبر نصَّابٍ على الإطلاق، لا أجد نفسي تائهًا مع انتشار مشاهد كانت من قبل مشهدًا سينمائيًّا يشاهده الجميع؛ ليكونوا سعداء، وجعلنا في الواقع تُعساء، سوف يكون مصيرك مذبوحًا، أشلاء جسدك ستكون وجبةً دسمةً للبشر آكلي اللحوم البشرية، وهي موجودة حقًّا، وليست مجرد عرض من مشاهد أجنبية، الأقرب هو العقرب، يلدغ دون استثناء للود، فالود أصبح قضية منتهية الصلاحية، تم وقف إطلاق التوظيف؛ لأن الخذلان نهش حقوق الإنسان، فيموت موتًا لا بكاء له داخليًّا، صومعة فكرك تؤذيك كالراهب الذي وجد ضالته داخلها، أصبح منعزلًا لاكتئابه ويتعبد فقط، كمؤذن يعتكف بالمسجد، ليبتعد عن البشر، لا يتحمل الابتلاء، فأصبحت روحه مثل أشلاء جثة هامدة، وبعد الصدمات الكهربائية ماتت ولم تنجُ، جميعنا مذنبون نعيش بمدينتها مكبلين بالأصفاد، ونأمل تحريرها، العرافة تعلم بقراءة فنجانها أنها كاذبة تنصت لها أحزانها، بالمغيبين وجدت سعادتها، الأحلام يتم سرقتها وتضيع هَبَاءً مَنثُورًا، الوضع من أساسه وضيع،

كطفلٍ مُضطهَدٍ على الأرصفة رضيع، بكائه يشل العقل بسبب وضعه الفظيعً، وخصلات الشعر البيضاء بدأت في الظهور، وأعتقد أنها الدخول في مرحلة الطُّهور، السلطان ليس النوم بل السلطان الحقيقي هو القلب، الذي تحمل الكثير والكثير، نيران مشتعلة في حب الذين لم يحبوك، بالرغم من الإحباط الذي تحمَّله قلبك من أول كلمة توجهت لك، حينها العقل رفض الخضوع، وأراد أن يحلق في الفضاء لاكتشاف الفلك، والقلب أبى تحليق العقل؛ فأصبح نقطة باهتة معرضة للخذلان، وهو يتسكع في الطرقات، ويستمتع بالموسيقى التي يستمع إليها، لا يبالي بمَن حوله، هائمٌ بسمَّاعاته، واصطدم بصديقٍ له منذ الطفولة يعلمه جيدًا، صافح كلاهما البعض بحرارة شديدة، كيف حالك يا عليّ؟

- أعيش في ملكوت الله، كيف يومك والأيام السابقة؟!

في حقيقة الأمر.. كنت أواجه فترة من أكثر الفترات صعوبة، دعنا نذهب إلى المقهى لنتحدث إن لم تكن مشغولًا.

- لا بأس يا رفيق الروح مازن، هناك مقهى يبعد عشر دقائق من مكاننا.

• ظلوا يسألون عن أنفسهم طيلة الطريق حتى وصلوا إلى المقهى، وأتى لهم النادل وطلب منهم مشاريبهم.

- احكِ لي يا مازن عن تلك الفترة التي كنت تعيشها، وإذا لم تحب تكلَّم بغموض لكي لا أفهمك كعادتك.

هاهاها.. حسنًا لا تقلق، سوف أوضح لك كل شيء؛ لأنني عاجز عن إيجاد الحلول، ليست مجرد أشخاص عابرة، بل كانوا ويظلون يدسون لنا كل ما تحمله النفس من سوء، ويقدسون الأسوأ، كنت لا أعرف معنى السقوط، ولكن سقطت في بئر حبهم، ولذلك يبادلوني الحب، ودائمًا أظن أني على الحافة، بينما أنا بعمق القاع، لم أَنَلْ شرف حضور عرضهم؛ لأنه بدون إيقاع، مجرد حركات بهلوان وصوت جماهير مزيفة، تعلو أمام الجمال الزائل، كقارئة الفنجان يظنون أنها حمام زاجل، أتفهم الآن يا عليّ؟!

- ويحسدونك أيضًا، أفهمك جيدًا، ولكن لا تلقِ اللوم على الحسد، وعليك أن تقتنع بالذي قمت به، أنه ناتج عن مهارتك ومعافرتك لتصل إلى ما تريده.

يا عليّ! اتَّهموني بفعل الأعمال السحرية والشعوذة، وأنني أستعين بالجن لمساعدتي، ويعتقدون بأني اتولدت بملعقةٍ من ذهب، وأنا أحاول أن أمارس الطواف حول المساجد وكل دور العبادة؛ ليغفر الله لي ذنبي الملتهب، القلب به جرح عميق، وأنتظر معجزة خاطفة، والقلب يميل للعاطفة، أسأل عن التوبة والاستغفار، والعقل ملحد في حالة الاستعمار، يصنفون نفسهم آلهة تطلب القرابين.

- اِعلن كفرك بحبهم الوهمي، ولا تجعل من نفسك قربانًا لتلبية رغباتهم، فهم غير مُتذكِّرين بأن الورد يخرج من ثناياه الشوك السام، الجمال ليس دليلًا على النقاء يا رفيقي، والقبح ليس دليلًا على السواد،

الألم هو الاشتعال، تعلَّمْ منه ألا تكون وقودًا لكي لا يزداد، أو أن تفعل خطأً غير مقصود في محاولة إطفائه فستحظى بالهلاك حينها.

عقولهم ملوثة، هالك بالندوب والقلب مليء بالذنوب، والعقل رافض كل شيء حتى أصبح تائهًا مُشتتًا، أكره نفسي، أقف على الحافة أنتظر حتفي.

- الإنسان قديمًا يا مازن، كان يجلس مع الجماد.. فتركناه وأصبحنا نجلس مع البشر.

ويظل يستقبل الصدمات بحبٍّ، وبداخل غرفته يبكي، وقلبه موجوع موهوم، وبداخل كل نفس جبال من الهموم، مجرد عرض حصري لمسرحية كاذبة، بداخلك غضب الحياة بأكلمها، وسهام الحب قامت بقتلك.

- نعم، صحيح ولكن.. البركان يكاد أن ينفجر، احترس من الرجوع خطوة للوراء؛ لأنها سوف تقصف جبهاتكم بالغضب الشديد، بالداخل لهيب نيران البركان، ولن يتوقف عن الاشتعال، عقل لم ولن يكف عن التفكير، احترس مجددًا، أبدو لك هادئًا لا أحمل الغضب، ردُّ فعل قاسٍ للغاية، سيُنْهِي كل شيء، التخزين أمر غير جيد، سينقلب عليكم رأسًا على عقب.

أتدري يا عليّ؟! أريد الاستيقاظ من نفسي، الألم يتوغل كما تشتعل النيران في القش، مجرد شعلة بسيطة جدًّا تسببت بحريقٍ هائلٍ لم يستطع أحد إيقافه.

- الألم وما أدراك ما الألم؟!

إنه كالمدخن الذي يدخن بشراهة ولا يكترث لصحته، يستمتع بسيجارته، ويقوم بدعسها حين تنتهي، ويشعل السيجارة الأخرى، هكذا الألم يظل يشتعل داخلك حتى لو هدأ سيكون هدوؤه مدته قليلة، ويشتعل أكثر مجددًا، وما أدراك به يا مازن إنه الشفاء ذاته!

هذه قمة المنطق، أدركت بأن الحب مُخيف للغاية، مثل التوبة الأخيرة التي لن تأتيَ لعاصٍ، بالرغم من تواجد الفرص.

"فلسفة الأفاعي ورسائل سارتر الإنسانية"

جان پول سارتر، فيلسوف وأديب فرنسي، وُلد ٢١ حزيران ١٩٠٥م في باريس، وعاش في طفولته حياةً باذخةً، وبعد مولده بعام واحد فقدَ والده الذي توفي في الهند الصينية، فتزوجت أمُّه مرة أخرى من مهندس في البحرية، وانتقل للعيش معهما في مدينة لاروشيل، وفيها حياة البورجوازية التي انتقدها لاحقًا، ثم عاد إلى باريس، وحصل فيها على شهادة البكالوريا، وتخرج في العام ١٩٢٥، من دار المعلمين العليا École Normale Supérieure ثم نال شهادة ال Agrégation في الفلسفة، عُيِّن أستاذًا في مدرسة Lycée Le Havre الثانوية في عام ١٩٣١، وهنا نلحظ كيف بدأت حياة سارتر الراشدة في فترة ما بين الحربين، وبدأت حياته الأدبية أيضًا، ونشر بعض المقالات والكتب والروايات، وقد جعل من الأدب وسيلةً لطرح أفكاره الفلسفية، وكان هدفه تقريب أفكاره من الجمهور.

- "سارتر"

هل يمكن للإنسان أن يكون جبانًا عندما يواجه الخطر عمدًا في كل لحظة؟!

وهل يمكن للمرء أن يحكم على الحياة بفعل واحد؟!

الأنسان كائن هجومي ودفاعي معًا، إنما الأفعى تسعى للحفاظ على نفسها من سلطة الإنسان كونه الأقوى في معتقده البائس، ولكنه ليس هكذا، الأفعى تسعى بالألم حين تهرب منه خوفًا على نفسها، هي تعطي الفرص، الإنسان لا يعطي أي فرص، يظل يسعى في الأرض فسادًا، وعلى مقدرة تامة أن يواجه الخطر، ليحظى بالعيش في سلام، لذلك تجده يهاجم أي حيوان أمامه، ومن حسن الحظ بأن الأفعى تمتلك الدفاع فقط، كلما اقترب منها تبتعد حفاظًا على نفسها وعليه أيضًا، لكنه لا يفهمها، يتمادى أكثر وأكثر من الاقتراب منها، حتى تلدغه، وحينها تشعر بالألم أكثر، وتقول؛ يا ليتك لم تقترب من فطرتي التي وجدت نفسي عليها، ولا يصح أن نحكم على الحياة بفعل واحد؛ لأن الحياة بأكملها تحمُّلٌ المسؤولية الاجتماعية، ودَعْك من سلبياتها التي نعيشها فهي لا تنتهي، ولكن على الإنسان أن يكون ذا حدث مؤثر جدًّا في حياته وحياة الآخرين، فالتغيير لا يأتي سوى بالنفس أولًا، ومن ثم محيطك ومجتمعك بأكمله، ولكنه يطمع في بعض الأحيان، ويتسرع بالحكم عليها من خلال فعل واحد؛ لأن الأفعال لا تنتهي ولن تنتهي، نحن

غرباء فيها، وعلينا إيجاد حلول ووضع نقاشات حادة حولها، هي تحمل فلسفة لا يتمكن منها العقل البشري.

- "سارتر"

الحرية في ذاتها ليست مسألة اختيار، إنها لزوم ما يلزم، إنها ما لا يمكن اجتنابه، وهي جوهر وجود الإنسان.

هذا صحيح يا سارتر، ولكن على الإنسان أن يعيش حياته كما يروق له، والحرية إذا أصبحت مفرطة سوف تعم الفوضى في كل مكان، اُنظر إلى الأفعى؛ فهي تعيش بكل حرية، هي تتغذى على القوارض والحشرات والطيور التي لا تطير، اتخذت من الأرض جحورًا لها لتكون مأمنها، ونحن بكل سلطوية وجحود ننبش أماكن تواجدها وهي ماكثة، لم تفكر في أذيَّتنا قط ونحن فعلنا، أيصح هذا؟! بالطبع لا، ولأننا نتمكن من فزع الآخرين جعلنا نحب الشر؛ نمارسه بشتى الطرق، دون ملل، دون كلل، دون رقيب، ولم نصل بعد إلى تلك النشوة التي تشفي غليلنا، وكما قلت يا سارتر بأن الحرية لزوم ما يلزم، ونحن غير ملتزمين قط.. نحتسي كل ما يثير سعادتنا في نبش القبور أيضًا وليس جحور الثعابين فقط، نمارس طقوسًا خُزعبالية، لنحظى بشيء من السعادة، والندم لا يأتي أبدًا.

- "سارتر"

كان يحب أن يُريها لوحات جميلة، أفلامًا جميلة، وأشياءً جميلة؛ لأنه لم يكن جميلًا، وكان ذلك بمثابة الاعتذار.

نعم، فالإنسان حكيم جدًّا وغبيٌّ جدًّا، يحمل القبح والجمال معًا، ولكن القبح هو الطاغي في عقله، يظل يعافر ويغتال الطرف الآخر بكل ما أوتي من قوة، يتبع فلسفة القط والفأر في فن الركض نحو المجهول، أو بالأحرى يعلم ما ينوي فعله، خلل ما يحدث بخلايا العقل، ولأن الإنسان أنانيٌّ يريد الحصول على العالم بأكمله، يسعى دائمًا أن يكون السابق الوحيد، مُفرطٌ في مشاعره، في شره، أيضًا في الخير، ويتحدث عنه للجميع؛ ليظهر في صورة لائقة، وعقله غارق في خبثه، أما عن الأفعى فتمتلك قدرة عجيبة وغريبة جدًّا في الاختفاء؛ بحكم لونها الذي يتحول بفعل طبيعتها العجيبة وبيئتها، وهذا نوع من أنواع دفاعها، فهي ليست مصطنعة، ولن تكُف عن إعطاء الفرص، الإنسان عكسها تمامًا.

- "سارتر"

أن أردت العيش بالجحيم، فكل ما عليك فعله هو البقاء في سريرك، إذ إن العالم غير عادل وظالم، أن قبلت به، فأنت متواطئ، وأن حاولت تغييره فأنت جلَّاد.

ولهذا السبب ينتشر الاكتئاب كسرعة البرق الخاطف للأبصار، فهو بمثابة حليف استراتيجيٌّ، فالبقاء على قيد الحياة أصبح أمرًا مُهمًّا للغاية، وللأسف الشديد ثمة أشياء لا نعرف ماهيتها! اضطرابات نفسية، تسعى لاغتيال نفسٍ تشتاق إلى الانتحار، تود أن تستقيم، وحبل

الاستقامة مُمزَّق، فالظلم الأسمى؛ وظيفة تُوفِّر ثمن سجائرك، الفلسفة السامية كتابة الألم والتدخين وتقبيل فلترها بجدارة، الإنسان كبريائه المفرط جعله فوضويًّا جدًّا، يسعى للانتقام ولا يسعى ولا يفكر في الانتقاء، ويريد دائمًا أن يقود قافلته، في سبيل تطوير الذات التي تحمل فيضًا من ديكتاتوريته، يمارس الظلم بكل ضمير وبكل قوة، ليظهر العالم بأبشع الصور، يخاف أن يحاول ممارسة التغيير في سبيل أنه لا يريد الظهور بصورة الجلاد، فالقلب يحمل ما لا يحمله أحد، البريء سيظل بريئًا حتى لو ظهر عكس هذا، الكاذب سيظل كاذبًا وكذلك الصادق، ويظل عالقًا بين العبثية والعدمية وهو المنتصف المميت؛ أيُّ أحد يجعلك تشعر بشعور سلبي عليك أن تمحيه من حياتك، أو لم يكن يومًا مُقدِّرًا قيمتك فعليك خسارته؛ فالخسارة هنا مكسب لك.

- "سارتر، جلسة سرية"

تمامًا، هذه هي المسألة، هل كان ذلك هو دافعك الحقيقي؟!

لا شك أنك ناقشت الأمر مع نفسك، وزنته ووجدت تبريرات رائعة لفعلتك، لكن الخوف والكراهية وكل الغرائز القذرة البسيطة التي نبقيها مستترة في الظلام، هي دوافع أيضًا، حاول أن تكون صادقًا مع نفسك، مرة في العمر!

يهابون من المعرفة كأنها شبحٌ يركض وراءهم، وترتعب قلوبهم، من هول صدمة اكتشاف الحقائق، يصعب على المرء أن يكون صادقًا مع نفسه، وإن كان كذلك لن يكذب على الآخرين، لن يُخفِيَ فعلٍ ما قد

اقترفه، ولكنه دائمًا يُفضِّل فعله في الخفاء، ليظهر بالشكل المثالي أمام المجتمع بأكمله وليس أمام نفسه فقط، لا يتصالحون مع ذواتهم، ويتخاصمونها بشكل يليق بقذارتهم، الرصاصة التي تخرج من المسدس هي مظلومة للغاية؛ لأنها تحملت ظلم الضاغط على الزناد بسبب تهوره، هؤلاء الأشخاص يمتلكون عدة أوجه، يعشقون الجنون وندوبه، الحب وعقلانيته، فالجنون والحب وجهان لعملةٍ واحدةٍ، كلاهما يمتلك روحانيته، القلب مثل صومعة الراهب الماكث للعبادة، موقف العقل حينها سرداب لا يؤدي إلى شيء، ولكن حين رأوا المجنون قذفوه بالحجارة، والحب لوثه القذارة، ربما أصبحنا بداخل وَحْلٍ مُقزِّزٍ.. هل يبكي ملك الموت في لحظة قبض الأرواح؟! وما الذيً سوف يحدث في لحظة قبض روح لشخصٍ ما؟ سيقول له: أُعذرني! قد رأيتك وتتبعتك، وأريد راحتك؛ لأنك في وسط مدينة مليئة بالكره والحقد والسخرية وتحطيم الأحلام، وشعورك بالنَّبْذ الذي لن يكُف عنك بل هو ملازم لك؛ كالمريض الملازم للفراش.

"ضياع وتشتت"

الخذلان قد دُفِنَ داخل قلبي؛ ولم أشعُر به قط، فاتخذت ملجئي صمتًا، وهم نحاتون وقلبي قد شبع نحتًا، وتركت الأمر للسماء، وأشاهد من بعيد، وجه مبتسم وحيد، شريد متسكع بالشوارع، أدخن سجائري، وأكتب بشغف، عن قلوبٍ أصابها التلف، جميع الحقوق قد انتُهِكَت، آه! نحن في الأرض حيث سفك الدماء مُباح، آه وألف آه!! نبذ الجمال حيث الاغتراب عن الحرية، هذه المرة لن أقول: "آه"؛ لأنني لم ولن أعد أشعُر بالألم فقد اعتدت عليه، قمت بتجربة اللذة بالألم، لن أخشاه مُجددًا، أصبح مِحْورِي، فقدت لذتي في الاستمتاع الذي كنت.. وكنت فعل ماضٍ، فقدت جوهري، ظهري انحنى، وجسدي هزيل لا يقوى على فعل شيء البتة، فلن أكون قطرة ماء لعينة لتحيا بها النبتة، ثمة

مشاعر تأتي وتغادر، وما بينهما نفْسٌ تعافر، ربما حب أو الرغبة بالانتحار، المعافرة ليست فارغة، بداخلها الانتصار، أشهد على ذلك الصراع، الذي لم يكف عن المشاغبة.

القلب بائس يريد المداعبة، الحب في حد ذاته نبذ؛ لأنه يشعرك بالعجز، فتكون أعمى البصيرة، تالفًا كصوت الذخيرة غير الحية، ولا أحد ينصت لنا، جرعةٌ زائدة من الاكتئاب، شمَّر عن ساعديه، وكأن وحشًا ينتظره خلف الباب، وجلب الأداة الحادة، أصبح يرسم ويبتسم، يأخذ رشفةً من قنينة الخمرِ، ويقبض عليها كالقابض على الجمرِ، ونظر في المرآة فوجدها فارغة، ودقَّق أكثر فرأى ملامحه جائعة، يحبها متمردة، والمجتمع يراها بالمعصية مجاهرة، ولكنهم لا يعلمون، ويتفننون في إصدار الأحكام، ولا يكفون عن الاتهام؛ لأنه مجتمع يجيد الالتهام، وينبذ الجمال ويلجأ لتحطيم الأحلام، الاكتئاب لن يكُفَّ عن الشراهة، حتى يتحور أكثر فأكثر، حتى يصيب الجميع بالاختناق المفاجئ دفعةً واحدة، وسنتجه نحو الانقراض بدفعةٍ واحدة أيضًا، الحذر ثم الحذر، وعدم الاستهانة بقوته، نحن نتبع مناعة القطيع، الناجي هو الفصيلة الأكثر نقاءً، والموت سوف يأتيه عاجلًا أم آجلًا، عدميٌّ أنا فلا تكترثوا لذلك الجنون الذي أتفوه به، نظرة تشاؤمية لا أكثر ولا أقل، يا فصل الخريف تعجبني فلسفتك اللعينة المتمردة بقيادة الكون، تنزعج من أوراق الشجر الذي ليس له فائدة وتتخلص منها على أكمل وجه، ولا تضع نفسك تحت طائلة تحمل ترهات إزعاجهم لك، تجيد لنفسك الراحة الأبدية، تزيل كل ما هو ملوث حولك، لو حدث

واتَّبع البشر ذلك النهج الذي تسير عليه؛ لم ولن نكن نحظى في يوم ما بالندوب، حين يقع الكأس على الأرض سوف يَحدُثُ ضجيج ناتج عنه، فالجميع سوف يلاحظه، ولكنهم لا يلاحظون رجفة يديك، ابتسم فحسب ولا تكترث، ابتسم أمام الخيبات، ولا تجعلها تشغل تفكيرك، دع الأمور تسير على نحو سلِسٍ، القدر سوف يبهرك، دعك من ترهات الاكتئاب؛ فإنه أكبر مزحة صادقة على الإطلاق، لا تظلم نفسك، دعهم يقولون ما يقولون عنك، وأنت تعلم من خطئهم، فلا تكترث، وقبل أن تدير ظهرك لهم ابتسم؛ لأن الابتسامة ستجعلهم منكسرين، ويخيل لهم بأنك لا تسقط أبدًا، وأنك صامدٌ إلى النهاية، دع ندوبك لك وحدك لا تشاركها مع أحد.

- أنين صاخب داخلك لا يسمعه أحد سواك!

بكامل الأسف يا ماركيز، الظاهر هو الحقيقة المبهمة التي تنفي حقيقة داخلك، حين يفتت الألم ثناياك، وتحاول أن تستنشق هواء التحرر منه، تجد ألفًا بل الآلاف من العقبات تقف أمامك، أغلب العقول تحمل محتوى لكنه فارغ لا يحتوي على فكرة جديدة، تنتشلنا من نار الجهل التي تتوغل وتمتد لجميع أنواع العقول، مجرد فكرة جديدة تأتي لك، من خلالها يتغير مفاهيم خاطئه، ومن المحتمل أن لا تستوعبها لحملها العمق، والأخرى تكون سطحية، ولكنها مثيرة للجدل حول ماهية الأمر؛ فتجعلك تستخرج أفكارًا كثيرة من خلالها، وهنا المعضلة الكبرى، لذلك تجدني في حالة تشتت دائم، حين أنام تزعجني فكرة،

وكذلك عند الأكل، وعند دخولي المرحاض، في الطرقات والشوارع، وعند النظر في عيون المارة.

- هناك الكثير يحدث أمامنا وربما وراءنا، وراء الأبواب تكمُن الأزمات، الرجال يتعصبون والنساء تصرخ، الرجال يتحكمون والنساء تخضع، لماذا حين يصرخ الرجال لا تتكلم المرأة؟! ولماذا حين تصرخ النساء يثور الرجال؟! وبالأخص من زوجاتهم، يتذمرون ولكن لا يدرون بأن صراخها ناتج عن أحاسيس دفينه في قلب كل زوجة، وهذا بسبب الضغوطات والمسؤوليات، وعدم القدرة على الموازنة بين بيتها وعملها، ولكنها بشكلٍ ما تنجح في كلامهما، تسعى دائمًا للمثالية من ناحية زوج محب، وبيتٍ نظيف، وأولاد متفوقين دراسيًّا ومهنيًّا، وتمُر بأوقات عصيبة مثل الاضطراب الهرموني بجسدها، وعدم جلوسها في المنزل مع أطفالها لفترات طويلة، فيؤدي هذا إلى اختناقها، وكذلك الرجل أيضًا حين يتأخر عن العمل تجده يتعصب، والضغط الذي يواجهه.. الذي يجعله يتحمل فوق طاقته، فهو يؤدي إلى حتمية القسوة، ولكن من المنطق، أن يتمكن كل منهما تحمل الآخر ليحظوا بحياة أفضل، ويجعلون حياتهم العملية جانبًا، والزوجية في الجانب الآخر، لينتهي المطاف بحياة مثالية، ولكن يا بيبر سيبقى السؤال، كيف نكون بالفعل ذات تأثير حقيقي؟!

معك حق ماركيز في حديثك، ولكن هناك تعقيب بسيط جدًّا، سوف أوضحه لك بأن المثالية في حد ذاتها لو مبنية على الادعاء فحتمًا سوف يُصاب كل منهما بآثار نفسية شديدة الخطورة، والأهم من ذلك هو تقبل

عيوبهم والتصالح مع ذواتهم، هذا الأمر هام جدًّا؛ لصلابة العلاقة أي كان نوعها، لا أعلم إجابة سؤالك هذا، السوشيال ميديا أصبح لها تأثير كبير في حياتنا، علينا أن نستخدمها في الإصلاح وطرح المواضيع التي تستحق المناقشة، وسيصل ذلك إلى جميع الدول، ربما هذا سيكون سببًا في انتشال قليلٍ من الجهل.

- التضحية والطاعة ليس وجهَيْن لعملةٍ واحدةٍ، هناك فرق شاسع بينهما، وعلينا أن ندرك ذلك الفرق، الصدمات والدروس تجعلك تفهم الشعرة التي تفصل بينهما، وتفكر للمرة المليون قبل اتخاذ أي قرار أو إصدار أي حكم، ستبحث عن ماهية الأمور بكافة أنواعها، ليموت الشك بداخلك، والأهم أن لا يكون هناك شكٌّ يقتل كل جزء من أجزائك، كالشهيد الذي يموت دفاعًا عن أرضه ثم تخونه تلك الأرض، أبحر كلما استطعت، ولا تخف.. ستجد المزيد من راحتك، وأهمها الإدراك، فلتتنحَّ رغبات المجتمع بعيدًا عن رغباتك الشخصية التي من المفترض أن تكون ناتجة عن وعي كالإنجاب.

ولكن يا ماركيز.. هل الإنجاب يكون ناتجًا عن وعي حقًّا، أم مجرد ظهور أمام ذلك اللهو الخفي أنك قادرٌ عليه؟!

- اِنصت يا بيتر.. يقول الدكتور ديفيد بينتار في كتاب {الأفضل ألا تأتي أبدًا: ضرر القدوم إلى الوجود}،

"أصبح الإنجاب من تبعات ممارسة الجنس، بدلًا أن يكون نتاجَ قرارٍ واعٍ ومدركٍ للإتيان بأفراد جدد لهذا الوجود، حتى الأشخاص الذين يأخذون قرار الإنجاب بشكل واعٍ، فإنهم يفعلون هذا لأسباب عديدة، لكن ليس من ضمنها التفكير في مصلحة الطفل نفسه، وأن مجيئه إلى هذا العالم سيكون شيئًا جيدًا بالنسبة إليه، لا يوجد أحد ينجب طفلًا لمصلحة الطفل نفسه".

تفكيرك هذا ومنطقك في شفاء نفسك بالتحليل للأشياء من خلال قرائتك، اقتنعت أني أجهل معاني أسمى الوجود الذي نحن متواجدون من أجله، تبًّا يا ماركيز.

- نحن هنا ليس من أجل تلك النقطة، والمسألة هذه ليس لدي لها أي تفسير منطقي حتى الآن؛ لأننا بكل بساطة تم ممارسة الإجبار علينا بأن نأتي، ومن جهة أخرى أريد أن أفهم سبب تواجدي هذا، بغض النظر عن الزواج وتبعاته، لماذا على الإنسان أن يحصل على كل ما يريده؟! لماذا يحب نفسه ويستسلم لضياعه وتشتته في أغلب الأحيان دون مواجهتها؟ يمارس التسلط على الآخرين، ولم يكُف عن تفكيره السيء لحياة الآخرين! يجعل من نفسه عرضة للإصابة بأمراض الاكتئاب المختلفة، والذي يجعله باقيًا في تلك الحياة اللعينة المتمردة بطبعها، هو مجرد طعام يدخل في معدته، وهذا مجرد وسيلة من وسائل غريزة البقاء، نحن لسنا متحكمين بها، ولكننا نخاف الموت وهو الأمر الحتمي لكل كائن على الكوكب بأكمله، ربما لأننا نحب ومخاوفنا من أقاربنا حين يتلقون

خبر صادم بالنسبة لهم وهو مفارقة الحياة، لماذا علينا أن نسير على نهج واحد فقط؟ ولماذا علينا إرضاء جميع الأطراف؟ حقًّا لا أدري!

سحقًا يا ماركيز.. جعلتني ساخطًا على الحياة أكثر، وأشعر أنني أشفق عليها بدلًا عن كراهيتها، وكُلِّي يقين بأن مهما طال العمر بي لن أمضي طويلًا، البشر يغمُرهم البلاهة، فهم متكبرون مستهلكون بسخافة، متكررون بقبحهم، جنسنا هذا غير متزن، غير منظم، سوى أنه مُدَّعٍ كاذب يسخر من كل ما حوله، والأهم من هذا كله وَهْمهم الوحيد هو التكاثر والاستمرارية لذلك الجنس المدعو بالبشرية؛ فأصبحت مرضًا ينخر جسد الحياة بجدارة، لكن الانتحار ليس له حل حتمي سوى حمله لحقيقة الموت، الكون غريب جدًّا، والأغرب من هذا أنني أصبحت أنتظر وقوف طائر الغراب مرة أخرى، على آخر جسد بشري على هذا الكوكب، الذي يسخط من نفسه بالفعل، يا الله كم يروق لي تلك الخاتمة، ولكنني أتمنى أن أكون تلك الجثة، حينها سوف يُشفى غليلي من كثرة الشكوك التي تحوم حول عقلي، هناك وريد ما زال ينبض بفعل الدم الذي يتحرك داخله، وهذا يعني أنني لا زلت على قيد الحياة، وهذا الأمر سيجعل مني لعبة بداخلها أو كعروسة ماريونيت تحركني كما تشاء، وسأظل بتحدٍّ دائم معها لا ينتهي؛ إما أن أفوز أو أُهزم، وبالأحرى سوف أنال الهزيمة بصدرٍ رحبٍ، وهذا سيستمتع بالوقوف والشموخ فوق جثتي، كُلِّي أسف ورثاء، وسوف تُعاد تلك الجلسة، ولكن مع أطفال آخرين حين يتم إنجابهم، ومن ثَمَّ ينضجون وسيظلون يثرثرون بصراخهم.

"العبث"

مجرم خطير قاتل يهدد الأمن، كلما يخطو خطوةً واحدة؛ يثير الذعر بداخل النفوس، كل مَن يراه يهرب هلعًا مُهرولًا، وكأن دوره قد أتى للوقوع بيده، حيث لا رحمة ولا شفقة، لا ينظر إلى أهله، لا يفكر قط إذا كان متزوجًا أم لا، يمتلك أطفالًا أم لا! يستقوي على الضعفاء والمساكين، الذين لا حول لهم ولا قوة، يخطف الرُّضَّع من أمهاتهم، يقف بثبات انفعاليٍّ يتلذذ ببكائهن، ويستمتع حين يرى وجوههن تحمل الأسى والخزي، والدموع التي تغمُر أعينهن ورجاءهن، وكأن ذلك المجرم متواجد بيننا من أجل الحفاظ على صورته ورمزها الشر، ما هو الماكث بداخل قلبه؟! لا أحد يدري سوى الجانب الظاهري المظلم فقط! ولا يفكرون، ما هي دوافعه للوصول إلى تلك المرحلة؟ هل قلبه

ينبض حقًّا مثلنا؟ هل يشعر بالحب؟ هل يحب أمه أم يزدريها؟ ربما لم يجد صالحًا حوله؛ لذلك لم يدرك ذبح الناقة، أو بالأحرى لم يجدها؛ لذلك قرر إيجاد نفسه في إجرامه، وينقصه أمرٌ ما، ولهذا السبب قرَّر إيجاده في أذيَّة الأضعف منه، ويدرك أن البقاء للأقوى، وأن تلك الحياة غابة وهو أسدها، هل يشعر بالذنب اتجاه هذا الشيء؟ هل هو مقتنع بأن الذي يفعله مجرد إصلاح خطأ أو تصحيح المسار؟ أم نحن نعيش في حقبةٍ زمنيةٍ مليئةٍ بالسلبيات؟! حياتنا أصبحت مهترئة صَدِئة مبتورة، مفتقرة للمشاعر الإنسانية الدافئة، ولا يوجد مجرى ماء ليبتل ريقها، قال دوستويفسكي: "أشعر مرة أُخرى برغبةٍ عارِمةٍ في التخلي عن كُل شيء"، صدق بالفعل، وكانت لديه نظرة مستقبلية لِما يحدث الآن، ورغبته في التخلي مُحقَّة، فنحن مُذلُّون مهانون – ويقول أيضًا: "ما أكثر الشرور التي يمكن أن نتفاداها بالصراحة!"، وهنا كان مقصده بأن الشرور يمكن تفاديها بعدم فعلها، وظل يتساءل على هوية الإنسان الداخلية من ندوب وإذلال وجلد الذات، وكل ما يعانيه ويؤلمه، وفي الزوج الأبدي – لدستويفسكي "على العموم، الأمور تسير دائمًا من سيء إلى أسوأ"، نظرته ثاقبة للغاية؛ فنحن نعيش عصور الظلام المختلفة في أحداثها، فرق توقيت لا أكثر من هذا، وحدث ما لا يدركه عقل بشري، صدقت مجددًا فيما تم طرحه من خلالك، ويقول دوستويفسكي أيضًا في الإخوة كارامازوف: "يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوره خاليًا من الألم ومن الظلم، اللَّذَيْن يستطيعان وحدهما أن يهبا للإنسان معرفة الخير والشر! ألا بئست تلك

المعرفة إذا كان ثمنها هذا الثمن! إن كل ما في العالم من علم لا يكفي للتكفير عن دموع تلك الطفلة التي تتوسل إلى الرب الرحيم أن ينجدها، لن أقول شيئًا عن الآلام التي يعانيها الكبار، فإن الكبار قد أكلوا الثمرة المُحرَّمة، فليجنوا جزاء ما فعلوا، وليأخذهم الشيطان جميعًا؛ إذا كان الشيطان ما يزال يلوي عليهم ويهتم بأمرهم، أما الأطفال، الصغار الأبرياء، فما ذنبهم؟! كيف نسوِّغ عذاب الأطفال؟ تلك مشكلة لا أجد إلى حلها سبيلًا، إذا كانت دموع الأطفال أمرًا لا بد منه، ولا غنى عنه لإكمال مقدار الألم الذي سيكون ديَّة للحقيقة، فإنني أعلن جازمًا أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظًا إلى هذا الحد"، وهنا يقصد بأن الحياة مبنية على الألم والظلم والعدوان، كل شخصٍ يتحول من سلبي إلى إيجابي والعكس صحيح، بحكم البيئة المحيطة التي يعيش بها؛ فهي المتحكمة في ماهية الإنسان وقراراته التي يتخذها في مجرى حياته، فجميعنا نتوسل إلى الرب لنحظى برحمته الواسعة ونكون سالمين، دموعنا دليل على ندوبنا لتهدئتها، إنها الخيبة التي تحوم حولنا، فقدان الأمل في الأمان والاستقرار، الحقيقة الوحيدة هي صاحبة القرار؛ لذلك دائمًا تكون صائبة، ويسعون دائمًا لتكون غائبة غير حاضرة، متوغلة بيننا بانتشارها الواسع، ولكننا نتقن إهمالها، فكُلما زاد انتماؤك، زاد خذلانك، سواء في عملك المحيط الذي تعيش به، المقهى المعتاد الذي تذهب إليه، تعويض النقص يزداد بضعف النفوس ويفوز، وتظل شريدًا.. تختلس النظر من المارة ليعطونك ابتسامة صادقة واحدة، أما عن عذاب الأطفال أثناء ولادتهم... فهم يبكون، يتألمون، يصرخون،

يكبرون بنفس ذات الألم مع اختلاف المواقف، يحاربون كل ما يأتي أمامهم، أصدقاءهم، أفكارهم التي تُفتِّتهم، هناك مَن اتخذ المعرفة للوصول إلى حقيقة الخير ويختاره عن اقتناع، ومَن يتخذ الشر طريقًا له؛ فوجد راحته فيه، ولكنه يتألم بعد ممارسته، ربما يشعر بالندم، وهناك مَن اختار العزلة الاجتماعية؛ يمارس نشاطاته في الخفاء دون معرفة أحد، فهذا الأخطر على الإطلاق؛ من حيث كثرة البحث والتفكير، ولم يحظَ بالاسترخاء، يسعى إلى زيادة وعيه وسيقتله يومًا ما، الجميع مُعذَّب بشكلٍ أو بآخر، العالم وقح للغاية، والأقسى من ذلك أن هناك الكثيرين لا يناسبهم ذلك، خلقنا مختلفين وسنظل هكذا، البكاء يُجَمِّل العيون ويجعلها مزدهرة، متمكنة بزراعة الزهور داخلها، ودون استثناء نحن نحترق كذرة الأوكسجين، الذي يساعد على الاشتعال ولا يحترق، أنانيتنا كفجوة الثقب الأسود بالفضاء؛ تبتلع كل ما يقف أمامها.. نحن كذلك، وإن أصابنا الشلل سينتهي كل ما يتعلق بالسعي، نلوذ بالفرار، نحطم آمالنا بأيدينا من أجل الخوف، هذه النقطة معضلة كبرى، فهو شعور ناجم عن خطر ما أو تهديد، أو استقبال صدمة ما تؤدي إلى التجمد والشلل، سواء من البشر أو الحيوانات، الخوف نوعان أحدهما عقلاني، والآخر لا عقلاني، أو غير منطقي، غير مناسب، هناك مجموعة صغيرة من العواطف الأساسية اقترحها علماء النفس؛ مثل: "جون واطسون، روبرت بولتشك"، وتشمل: الغضب، القلق، الخوف، الرعب، الفرح، الذعر، والحزن، والعديد من المخاوف، هي مكتسبة من البيئة المحيطة، ويرتبط الخوف ارتباطًا وثيقًا بالتوتر، ولكن

ينبغي أن يُفرَّق بين الخوف والتوتر، والذي يحدث نتيجة التهديدات التي يُنظَر إليها على أنها لا يمكن السيطرة عليها، أو لا يمكن تجنبها. وتخدم استجابة الخوف غريزة البقاء على قيد الحياة؛ عن طريق توليد الاستجابات السلوكية المناسبة، اِحْذَرْ من أن يتحول خوفك من منطقي إلى غير منطقي، سيصبح حينها كالرُّهاب أو الفوبيا، وهو مرض نفسي يعرف بأنه خوف متواصل من مواقف، أو نشاطات معينة عند حدوثها، أو مجرد التفكير فيها، وهذا الخوف السّيدي يجعل من الشخص العيش في ضيق وضجر، ولا يستطيع التخلص منه بدون الخضوع للعلاج النفسي لدى الطبيب المختص.

سجين أنت بداخل غرفةٍ تحت الأرض، وتريد استنشاق هواء الحرية، باستخدام ملعقة صغيرة قد تنكسر في أي وقت أثناء الحفر للخروج للسطح؛ لتحظى بنور الشمس، كسكِّير يسهر الليل في الحانة ويستيقظ صباحًا للصلاة، والنافع الوحيد هو صاحب الحانة، فأعمالك ذهبت هباءً، تريد تغيير منهجًا مُمَنهجًا لأساليب مجرمين لن يفهموا شعورك اتجاههم، ويرونك في كامل حماقتك، وسيمارسون عليك جميع أنواع التعذيب اللا متناهي، ولن يتغير أحدٌ من أجل فلسفتك اللعينة المتمردة بقيادة عقلك، سُحقًا لك يا كرليس.

- لن تتغير أنت يا صعلوك.. الأفكار دائمًا تنبذني، تتبرأ من منطقي، وأراك تُشجِّع على الأفعال الإجرامية، ولن تُعطي الأمل لي نهائيًّا طيلة حياتك، يا دانيال! يجب تغيير العقول أولًا وطريقة تفكيرها، من السيء إلى الجيد، وليس العكس، في تلك الحالة لن يكون صحيحًا.. الصمت

أمام تلك المواقف خطأ فادح، عليك اللعب على وتر خلايا العقل؛ لتجعلها عاجزة أمام منطق فاسد وتقتنع بفساده، حينها سيتم استخدام المعلومات بديلًا أساسيًّا لمناهج الحياة.

حين ترفضك جامعتك وأنت كل مطلبك هو العلم؛ فهناك خطأ، حين ترفضك شركة عالمية لفرصة عملك بها، بالرغم من تواجد الخبرة التي ضيّعت فيها سنوات عمرك في أخذ الكورسات والدبلومات لتعمل بها؛ فهناك خطأ، مشكلتك أنك لا تنتمي لهذا المكان، تنام وتفيق على الانزعاج من الكوابيس، تطمع بأنك تكون ذات اسم يُنطق على كل لسان، ويقولون: ها أتى كرليس؛ لنأخذ معه صورة تذكارية، ونضعها على مواقع التواصل الاجتماعي؛ لنحظى بتفاعلٍ كبيرٍ على صفحةٍ افتراضية لا تمت الواقع بصِلة، وهناك مَن سيكتب عليها: صديقي العزيز، وأنتم لا تعرفون بعضكم البعض، تريد أن تقف على أرجلك، ولا تدرك مأساة الجلّاد الذي سوف يضربك ضربًا مُبرِّحًا بالسَّوط حين تقع بين أيديه، لا تكُ متفائلًا هكذا لن يُجدي نفعًا.

- مخطئ تمامًا يا دانيال، وتُزيد في إحباطي، عليك أن تتفاءل وأنت على محراب الأحلام، تفاءل وأنت بعمق صراعاتك النفسية، التشاؤم لا يفيد البتَّة، الصبر والتفاؤل كلاهما وجهان لعملةٍ واحدةٍ وهي الفَرَج، أنت لصٌّ محترف، تمتلك أساليب يبغضها الجميع حتى الحشرات، أسلوبك هجومي مليء بالحقد والكره، وتجيد استخدامهما جيدًا، في دَسِّ أمراضك مُندفعًا في عجز الآخر بدلًا من أن تكون سببًا في فعل أمرٍ ما تستحق عليه الشكر والامتنان، لماذا تستخدم ذلك الوجه؟! أنت

بكل أسف أخطر من المجرم الصريح الذي يستخدم الأسلحة لترهيب الآخرين.. وهذا نعلم؛ كيف يتم التعامل معه، إنما أنت وأمثالك لا نستطيع التعامل معهم.

لا أعلم.. ما صنعت أنت؟! في الحقيقة أنت غريب للغاية، والحمقى هم الذين يسعون للتغيير مثلك يا كرليس، لن يتبقى لك أحدٌ إن لم تتقبل واقعك، تمردك هذا لا يفيد، القطيع بأفكاره المتشابهة سيفوز دائمًا ولن يهزم قط، إنما اختلافك هذا سيؤدي بك إلى التهلكة، ما هي دوافعك؟ ما الذي سوف تحصل عليه؟ حقًّا لا أدري!! ولكن وحدك تدري، يتساقط العالم وأنت تريد أن تقف لتنتشله، دقَّت الطبول!

وحيد أنت مغلول، تستمع لزقزقة العصفور، حزنك معزوفة، قلبك مبتور، حياتك غير مألوفة.

- ستصبح مألوفة.. إنني مخطئ باللجوء إليك، ظننت منك أنك تحترم ما أنوي فعله؛ لأنه سوف يفيدك ويفيد الجميع، ولكن أنت وأمثالك يا دانيال.... عليك أن تعلم جيدًا بأن التبرير لِما يحدث حولنا بتلك الأساليب التي تستخدمها يدل على أنك مؤيد لتلك الأفعال، إذن أنت مجرم مثلهم، ولن تنجو، وسيأتي الدور عليك؛ حين يجربون عليك استلذاذهم بألمك، وأنت مربوط مُعلَّق على سقف إحدى الغرف، أو مذبوحٌ في الطرقات ليصورك المارة بكل شفقة، أصبحنا لا نبالي، أصبحنا لا نهتم، وكل حياتنا التي نعيشها هي مجرد حياة افتراضية وليس الإنترنت، سأتركك كما أنت بمرضك الذي ليس له شفاء، وسيتم

مناقشة مشروعي في تفتيح العقول؛ لتتعلم التفكير بكل منطقية وتحليل المحتويات والمعلومات، وستلجأ إليَّ لتحصل على صورة تذكارية وأنت من المفترض صديقي، ولكن لن أسمح أن تحصل عليها، حين أقدم لك الترياق وأنت ترفضه، وتظل على خطئك هذا هو المنطق المغلوط، وعدم القدرة على استجابتك للتغيير، البقاء ليس للأقوى كما تعتقد، إنما للأكثر والأسرع استجابة.. لنبض تجديد خلايا عقلك المبهم، الذي يحمل مواضيع أشد قسوة مما يحدث حولنا، أنت الأحمق وليس أنا، أنت مجرد رقمًا سالبًا على اليسار ليس له قيمة، فمكانك الحقيقي خانة التجاهل، تحتاج إلى طبيب، ولكنه لا يفيد العلاج لك، فهو عاجز عن إيجاد الأمل في شفائك؛ لأنك بالأحرى ستنبذه بكل ثقة وبلاهة وسذاجة منك كما فعلت معي، وتجادلني بكل قناعة، وأنت لا تمتلك العلم الكافي الذي سوف يصيبك حين تدركه.

فلتجعل إدراكك لنفسك، واتركني على ما أنا عليه، لا أريد أن أكون نسخةً متشابهة من تفكيرك.

- يا دانيال.. قال جون لوك: «الحواس والمدارك هما النافذتان اللَّتان ينفذ منهما الضوء إلى هذه الغرفة المظلمة، أي: العقل»، شخصية الإنسان مُعقَّدة في الأفكار والتصرفات، وقد يحدث ما بينهما من تناقض، ومشاعر الإنسان تتغير تدريجيًّا وفقًا بما يحدث حوله أو ما يواجهه، العقل فَضاء مفتوحٌ واسعٌ شاسعٌ، يجوز فيه كل ما لا يجوز من تغيير المغلوط وعدم الاحترام لقدرته؛ فتفقده آدميته، وربما تتغير عقائدك بسبب حدث واحد تأثرت به والعكس هكذا، بأنك قد تظل

على تلك الحالة دون تغيير، وحينها سوف تندم على ذلك، أنت مصاب بالدوغمائية، وهي حالة من الجمود الفكري، حيث يتعصب ويثور الشخص لأفكاره الخاصة، لدرجة رفضه الاطلاع على الأفكار المخالفة، ويظل في صراع دائم، وسيحارب بكل ما أوتي من قوة، ويصارع من أجل إثبات صحة آرائه حتى وإن كانت تحمل الخطأ.

"تشاؤم شوبنهاور"

آرثر شوبنهاور فيلسوف ألماني، ولد في الثاني والعشرين من شهر فبراير عام ١٧٨٨م، درس الفلسفة بجامعة جوتنجن بين عامي (١٨٠٩ و ١٨١٣)، ثم انتقل إلى جامعة برلين (١٨١١ – ١٨١٣م)، حيث ختم دراسته بحصوله على الدكتوراه عن رسالته التي دونها تحت عنوان: الأصول الأربعة لمبدأ السبب الكافي، وهي رسالة في العقل وصلته بالعالم الخارجي، مات أبوه منتحرًا وهو في السابعة عشرة (١٨٠٥م)، عاش بعد ذلك حياة شقية تعيسة بسبب خلافه مع أمه؛ بسبب حياة التحرر من كل قيود الفضيلة التي عاشتها أمه بعد أبيه، وقد انتهى الخلاف بينهما إلى قطيعة كاملة حتى ماتت ولم يرها، وقد سبَّب سلوك أمه شعورًا عنده بالمقت الشديد للنساء لازمه طوال حياته، فلم يرتبط

بامرأة حتى مات، قام بالتدريس بجامعة برلين (١٨٢٠ – ١٨٣١م)، ولم يكن مُوفَّقًا ولا مقبولًا من الطلاب، وقد عزا ذلك هو إلى غيرة الأساتذة الآخرين منه، وتآمرهم ضده، ولم تكن كتبه تلقى رواجًا؛ مما سبَّب له إحساسًا مُضاعفًا بالشقاء والتعاسة، لكن في أخريات حياته، بدأت كتبه تروج والإقبال عليها يتزايد، فشعر بالسعادة والرضا. كان له بعض المال الذي ورثه عن أبيه، مكَّنه استغلاله لهذا المال من الحصول على غرفتين بأحد الفنادق المتوسطة، عاش فيها طوال الثلاثين عامًا الأخيرة من حياته، عاش هذه السنين في هاتين الحجرتين، وحيدًا بلا أم ولا زوجة ولا ولد ولا أسرة ولا وطن، ولا صديق، سوى كلبه الذي أطلق عليه اسم (أطما)، وهو اسم يُطلق على روح العالم، أو الروح الكلي لدى البراهمة، ولكن سكان الفندق والقريبون من شوبنهاور كانوا يسمون الكلب: (شوبنهاور الصغير).

"العالم إرادةٌ وتمثّلٌ"

((العالم كإرادة وفكرة : حكمة الموت))

إن الموت مفزع ومرعب.. وفي النهاية نواجه الموت، وفي الوقت الذي تبدأ التجربة في تنسيق نفسها والتحول إلى حكمة يبدأ العقل والجسم في التدهور والانحطاط، إن كل شيء لا يعيش إلا برهة، ويسرع إلى الموت والفناء، فإذا أمهلنا الموت وطال أجلنا فهو يلعب بنا كما يلعب القط بالفأر الضعيف الذي لا حول له، إذ من الواضح أننا في مَشْيِنا نتجنب السقوط ما أمكن إلى ذلك سبيلًا، ونحن في حياتنا نتجنب الموت ونحاول دفعه وإبعاده ما أمكن؛ لذلك يحتفظ طغاة الشرق بين حليهم النفيسة، وملابسهم الفاخرة بقارورة من السُّم، إن فلسفة الشرق تفهم وجود الموت في كل مكان، وتقدم لطلابها هدوء المظهر والصبر

والكرامة في تحمل الحياة ومواجهة الموت الناشئة عن إدراكهم لقصر حياة الإنسان، إن خشية الموت هي بدء الفلسفة، وهي العلة النهائية للدين، والإنسان العادي عاجز عن التوفيق بين نفسه وبين الموت؛ لذلك فهو يضع فلسفات وديانات لا تحصى، إنما يسيطر على الناس من عقيدة الإيمان بالخلود لَدليلٌ على خوف الناس وفزعهم من الموت.

- عزيزي آرثر، جميع الكائنات الحية، ولا يقتصر ذلك على الإنسان فحسب، بل على القوارض أيضًا، فهي تشعر بالموت قبل مجيئه ويخشونه بشدة، هم مجرد ضحايا في أي وقت، ربما سيهجم عليهم ثعبان يُشبع جوعه، والثعبان أيضًا ضحية لحيوان النمس، كما يُطلق عليه "قاهر الثعابين" الذي لا يخشى سمومهم، لديه قدرات خارقة للغاية، ومستوًى عالٍ من المقاومة؛ لذلك حين يعضُّه الثعبان السام لا يتأثر بسُمِّه، ولكن القادر على افتراسه ثعبان أيضًا، ولكن ليس به السم، ويندرج تحت طائلة الثعابين العاصرة، التي تجيد اختناق فريستها إلى حد الموت وابتلاعها، وفي النهاية تستخرج عظامها، وتحظى بوجبة النمس الدسمة، وتسمَّى بالأصلة العاصرة، ولها الكثير من الأنواع والسلالات، نوع كبير وثقيل الجسد، وأسلوبها في الصيد هو الانقضاض على الفريسة التي يصغر حجمها، لتلتف حولها ولا تتركها إلا في حالة أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، ثم تلتهمها، ولا يتبقى من الضحية سوى عظامها، الموت حقيقة وفزع بالفعل، وأيضًا معادلة صعبة، يصعب فهمها؛ لذلك تجنَّب أن تكون فريسة سهلة.

"العالم إرادةٌ وتمثلٌ"

إنَّ الحقيقةَ ليست مُومِسًا تُطوِّق بذراعيها عُنقَ ذلك الذي لا يرغب فيها، بلّ إنها على العكسِ من ذلك، فهي امرأةٌ رقيقةٌ شديدةُ الحياءِ، إنَّ الرجل الذي يُضحِّي بكلِّ شيء من أجلها، لا يكون مُتيَّقنًا من أنه يحقُّ لهُ الاطّلاع على مفاتنها.

- الحقيقة كالسيف الذي لا يقوى على قطع رقبة دجاجة، ويظل ينحر بها دون جدوى؛ لذلك هي مؤلمة، ولأنها كفيلة بأنها تنحر خلايا عقلك من هول صدمتها، وتصاب حينها بانتفاضة جمود فكرك، ربما تحظى بالتغيير، وربما تُصاب بالغثيان والإغماء؛ لأنها قاسية جدًّا فوق تصورك العقلي، ولأننا وليس تعميمًا مطلقًا نخدم المظاهر كمنافقين، لذلك يصعب علينا تقبُّلها. حين تدخل المرحاض لقضاء حاجتك، فالحقيقة تدخل بمرحاض عقلك، وتصيبك بالراحة وتسعى لشفائك، بالفعل هي علاج وترياق تهدم جميع الخرافات التي ليست لها أساس من الصحة، وتجعلك أكثر نقاءً من الذين يغمُرهم النفاق، إذ وقفت على قضيب القطار لن يتوقف من أجلك، وسيدهسك حتى تصبح أشلاءً ودماءً متناثرة في مختلف الأماكن، تلك هي الحقيقة.

"العالم إرادةٌ وتمثلٌ"

إشباع لحظيٌّ، ومتعة عابرة مشروطة بالاحتياجات، ومعاناة جمة وطويلة، وكفاح مستمر، وحرب الكل ضد الكل، كل شيء قناص وكل شيء يُقتنص، وضغط، وعَوَز، واحتياج، وقلق، وصراخ وعواء؛

ويتواصل هذا لعصور وعصور أو حتى تتحطم قشرة الكوكب مرة أخرى.

- مأساة الزواج التي تقع تحت طائلة اختيار خاطئ، ستجتاحه تلك الأشياء التي ذكرتها يا شوبنهاور، ولكن ماذا لو كان اختيار موفق وصائب؟! فحتمًا سيكون له نتائج جيدة، وبالأخص أنه لا يوجد أطفال في البداية لتحسين الأوضاع المادية والنفسية لتهيئة الطفل على المجيء، ويجد كل ما لذَّ وطاب في انتظاره، كونك شعرت بالألم وكافحت من أجل تلك اللحظة لإشباع رغباتك؛ فلن تكن جديرًا بتهيئة طفلك، وسوف تجعله يعاني مثلك، ونفس الشيء من معاناتك واضطراباتك؛ لتحظى بتلك اللحظة، ولكن إذا فعلتها بالمنطق مع استخدام الأساليب السليمة؛ سيكون لديك القدرة على أن طفلك سيعيش أبهى عصره.

من كتاب: "فن العيش الحكيم"

أولى ثمار العزلة هي راحة البال، وهي ثمرة طبيعية للتحرر من واجب مخالطة الغير والوقوع الدائم تحت وطأة أنظار الآخرين، وبالتالي؛ التحرر من الانشغال الهوسي بآرائهم في الأشخاص وفي أشياء هذا العالم. وبهذا يكون المرء قد ربح العودة إلى ذاته وإلى نفسه، تلك العودة التي ستجعله في مأمن من جحيم الآلام الواقعية المتأتية من هذا العته المثير للشفقة، المتمثل في الانشغال الزائد بآراء الغير".

- أتفق معك تمامًا يا شوبنهاور، العزلة نتائجها مفيدة لحد كبير جدًّا، فهي لا تعني أنك مكتئب، بالعكس يمكنك استخدامها في صالحك، في تطوير نفسك وذاتك، بغَضِّ النظر عن اضطراب النوم الذي يغمُر كل المختلفين عن ترهات القطيع، ومنطقهم اللا منطقي، لكي تواكب هذا العصر عليك بالعزلة الناتجة من قناعة تامة، وليس مجرد حبك لها؛ لأنها قناعات متمثلة في إحياء ذاتك مرة أخرى، ولا تنصت لِمَن يقول لك بأنك مريض نفسي، فكلنا مرضى بشكل أو بآخر، وستُشفى من الآلام الشديدة المصاحبة بعدم تقبلك لواقع أشد كآبة مما أنت عليه، وإن انشغلت بآراء الغير ستصيبك لعناتهم.

من كتاب: "فن العيش الحكيم"

كلما تضاءلت حاجة الإنسان للآخرين وميله لمعاشرتهم؛ زادت حظوظه لملاقاة ذاته والتصالح مع نفسه.

- حب النفس ليست أنانية، تصالحك معها ليست أنانية، فهذا أفضل من أن تتصنع من أجل الحصول على حبٍ زائف وزائل وتالف من جذوره، هواء التحرر يبدأ بذاتك، بتقبل عيوبك، ولا يحق للآخرين الحكم عليك بكل بساطة؛ لأنهم لا يعلمونك جيدًا، ولا تسمح لأحد بتعكير مزاجك بصورة مستمرة؛ لأن البشر يصدرون الأحكام الصادرة من أوهامهم؛ ليحظوا بسقوطك ومن ثَمَّ يصفقون على نجاحهم في أنهم تمكنوا منك، واغتالوا هواءك النقي بمزجه مع دخانهم الأسود القاتم.

من كتاب "تهمة اليأس"

إن الحياةَ تقدم نفسها بشكلٍ جوهري بصفتها مهمة، أعني: مهمة البقاء على قيد الحياةِ أصلًا، وإذا تحقق ذلك فالحياة عبءٌ، وتأتي المهمة الثانية في إيجاد شيءٍ لفعلهِ باستخدام ما تم تحقيقه، دَفعًا للملل الذي يحوم حولنا كطائرٍ جارح مستعدًّا للهجوم، حيث يرى حياةً متحررة من الاحتياج، المهمةُ الأولى: هي كسب شيء، والثانية: هي إرضاء شعورِنا؛ بأنه قد كُسِب وألا يصبح عبئًا، إن الحياةَ الإنسانية لا بد أن تكون نوعًا ما من الخطأ، تبدو حقيقة ذلك واضحةً بما يكفي؛ إذا ما تذكرنا ببساطةٍ أن الإنسان مركب من حاجات وضرورات صعبة الاشباع، وأنها حتى عندما تشبع فكل ما يحصل عليه هو حالةٌ من الألم، حيث لا يتبقى أمامه شيء سوى الوقوع في الضجر، هذا دليلٌ مباشر على أن الوجود لا قيمة له بحدِّ ذاته، إذا ما هو الضجر إن لم يكن شعورًا بفراغ الحياة، لو أن الحياة التي يشكل طوقنا إليها جوهر وجودنا تمتلك أي قيمة إيجابية بحد ذاتها؛ لما وجد شيءٌ كالضجر أصلًا، لكان مجرد الوجود يرضينا بحد ذاته، فلا نحتاج شيئًا، ولكن.. والحال هي أننا لا نجد متعة في الوجود إلا عندما نصارعُ من أجل شيء، ومن ثَمَّ تجعلنا المسافات والصعوبات التي ينبغي تجاوزها نتعب ونتضجر، ونظن أن هدفنا سيشبعنا، وهو وهمٌ يتبخر عندما نصل إلى الهدف، أو عندما نكون مشغولين بقضيةٍ فكريةٍ بحتة، وفي الواقع نكون قد خرجنا من الحياةِ لنراقبها من الخارج كما يفعل المشاهدون في مسرحية، وحتى

المتعة الحسية لا تعني شيئًا سوى صراعٍ وطموح، وتتوقف في اللحظة التي يتحقق فيها هدفهما، وفي أي وقتٍ لا نكون فيه مشغولين بواحدةٍ من هذه المسائل، بل نُعمِل تفكيرنا بالوجود بحدِّ ذاته، فإن طبيعته الفارغة التي لا تساوي شيئًا تُظهِر لنا، وهذا ما نعنيه بالضجر، التشوقَ وراء ما هو غريب وغير معتاد، وهي نزعةٌ فطريةٌ لا يمكن التخلص منها في الطبيعة البشرية، تُظهِر كم أننا سعيدون بأي تغييرٍ للمسار الطبيعي للأمور الذي هو مملٌّ جدًّا، هذا هو التجسد الأكثر مثاليةً للإرادة في الحياة، الكائن العضوي البشري بحدق آليته وتعقيد عملها لا بد أن يتحول إلى ترابٍ ويسلم نفسه وكل سعيه إلى الفناء، هذه هي الطريقة السذاجة التي تعلن بها الطبيعة التي هي دومًا حقيقةٌ وصادقةٌ فيما تقول، إن صراع هذه الإرادة برُمَّته هو مما في جوهريه فارغٌ ولا ربح فيه، لو أن فيه أي قيمةٍ بحدِّ ذاته، أيُّ شيءٍ غير مشروطٍ أو مطلق لَما كان من الممكن أن ينتهي إلى مجرد اللا شيء، لو انتقلنا من تأمل العالم ككل، وعلى وجه الخصوص أجيال الناس، ممن يعيشون ساعتهم الصغيرة من الوجود المزيف الذي يندثرُ في تتابع سريع، لو وضعنا هذا جانبًا ونظرنا إلى الحياة بتفاصيلها الصغيرة.. كما تقدم على سبيل المثال في الكوميديا؛ فكم تبدو سخيفة! كأنها نقطة ماء تحت مجهر، قطرةٌ صغيرةٌ تعُجُّ بالأحياء الدقيقة، أو فتاتة من الجبنةِ الممتلئة بالعس غير المرئي للعين المجردة، كيف نضحك من حركاتها الحيوية وصراعها مع بعضها بعضًا في هذه المساحة الضيقة؟! وسواءً هنا أو في الإطار الصغير للحياة الإنسانية.. فإن لهذا النشاط الحيويّ والمنفعل تأثيرًا مضحكًا،

في المجهر وحده تبدو حياتنا كبيرةً، إنها نقطة لا تنقسم، تجتذبها وتكبرها عدسات الزمانِ والمكان.

- كيف لك أن تُحيي المقتول يا شوبنهاور؟! غريزة البقاء هي التي تتحكم بنا وبنزواتنا وترهاتنا، وتقف أمام منطق الانتحار، أنت شخص عدميٌّ عبثيٌّ تشاؤميٌّ، وكل مجالات الفلسفة تغتال ثنايا عقلك البائس، ولكن هناك مَن أبئس منك! الحياة الإنسانية مليئة بالأخطاء والسلبيات التي لم ولن تتوقف، وستغتالنا واحدًا تلو الآخر، صدقت نوعًا ما في نظرتك التشاؤمية حول الحياة، ما يثير اهتمامي بك أنك عانيت الكثير والكثير في حياتك؛ فأصبح تشاؤم فلسفتك بها الصدق والكثير من العبث، ولكنك قد اتخذت مجرى حياتنا، وأصبحت تحلل كل شيء في الطبيعة وطريقة العيش، وسلب الإرادة منا، اليقظة أمر مؤلم للغاية، كن مُغيَّبًا بداخل سماعات الأذن، تستمع إلى الموسيقى التي تناسبك، فليحترق العالم؛ لأننا بكل بساطةٍ لن نحترق من أجله، مليء بالحروب والجوع والفقر والمرض والفيروسات والفطريات التي تأكلنا؛ ليحظى الدود بأكل أجسادنا، لا أسعى لأن أكون أضحوكة العالم! لو كنت حيًّا بيننا الآن لكنت كتبت عن أضحوكاتٍ تنبعث بداخل النفوس البشرية الحاملة بنظرات الشفقة للمنتحرين، ومن الجانب الآخر ستجد مَن يحملون هواتفهم الخلوية من أجل تصوير تلك اللحظة بدلًا من أن يقومون بإنقاذه، تبًّا وألف تَبٍّ.. القلب تالف منكسر، والمنتحر شخصٌ عظيمٌ في نظري ولا ألومه قط، ولا أشفق عليه، يثير جدلي في الكثير من التساؤلات حوله، وما الذي أدَّى له للوصول بتلك المرحلة؟! حقًّا لا

أعلم! ربما لأنني عانيت مثله، وكنت أنوي فعلها، وقررت بأن أفعلها، ولكن فشلت أيضًا بسبب تلك الغريزة، ولم أصل بعد لعظمة الفعل ذاته، أمجده وأمقته بنفس ذات اللحظة، من الحصول على نشوة خفية ربما إنهاء الحياة في سبيل راحتنا وراحة ممن حولك، ولن ينصتوا لك مرة أخرى، ومن الجانب الآخر ستجد المقت والسخط والغضب المُمثَّل في شفائي إلى الأبد، الأحوال المجتمعية تجعلك أشد قسوة على نفسك، تزدريها وتعاملها بسادية مميتة، ربما تلجأ الى صديقك المقرب ليقم بتعذيبك وتتلذذ أنت بالألم، ها أنت عاجز بائس مليء بالحب والندوب معًا، فوق الرؤوس ستجد التيجان، ومن الجهة الأخرى تجد الأحذية التي تدعسك وتميتك مثل الحشرة التي يشمئز منها الناس، تركنا أنفسنا لأفكارنا؛ كالأفاعي المملوءة بالسم وتتلوى بالأحقاد، وتعبث بنا، والأكثر عبثًا من ذلك.. تركنا أنفسنا لإدمان الكحول والجنس والعاطفة والقمار، الفخر والاعتزاز، والعزة والكرامة، والعدالة الاجتماعية والإنسانية، والذي سوف تقدمها للبشرية، سواء كنت دكتاتوريًّا علمانيًّا ليبراليًّا ديمقراطيًّا أو حتى من الطبقة الاستقراطية، أو حتى من الطبقة البرجوازية، وإن كنت من البروليتاريا وهي الكادحين، أو السايكوبوتية حيث العدائية، أيًّا كان ما تنتمي إليه؛ فالموت سيكون حليفك بشتى الطرق والوسائل، ستفضل الجلوس بنقطة مبهمة، وهذا الأمر لا محال منه، ولا هرب منه، ولا حتى ملجأ، شئت أم أَبْيت، هاوية الكابوس تقف له بكل شموخ، ولا تصل إلى ما تريده، وإن تحركت خطوةً واحدة لا أكثر أو نصف خطوة

ستفقد توازنك، تلك نهايتك الحتمية للوصول إلى حقيقة الأمر، واجه كابوسك، لا تخشاه، وإن خشيته فستقع بعمق صراعاتِ قاعه الذي يستحدث من العدم، والعدم ما هو إلا اللا موجود، غير سعيد! دائم الشكوى! يرونك طفلًا معه دمية تسمى الانتحار، ولا يضعون بنودًا لتحريك تلك الدمية، وستنتحر هي بدلًا عنك، الطريق لا ينير مظلمًا للغاية، والظلام ذاته قدَّم استقالته من قلبك؛ فأصبح كُليَّ السواد؛ لدرجة أنك لن ترى ضوء الشمعة التي تُعَدُّ لك آخر أمل في حياتك غير الموجودة؛ لأنك بالفعل منتحر، بجسدٍ يحمل قلبًا ينبض فحسب! يقوم بضخِّ الدم في عروقك، لتجديد غريزة البقاء، ويبقى السؤال.. لماذا تلك الغريزة لا تقينا من الاكتئاب؟! غير جديرة بالثقة؛ لأنها لم تقدم لنا يد العون سوى انتشال جسدك من الموت، بالنسبة للأمور الأخرى التي يستحيل تفسيرها! ماذا عنها؟ سنظل هكذا، ولن نحظى بيومٍ دسم تغمُره الراحة الأبدية.

"عناق الألم"

الألم هو الصادق على الإطلاق، لا زيف، لا ادعاءً للمثالية الحمقاء، ومن جهة أخرى حين تكتمه سيتحول إلى وحشٍ كاسر لا يهابُ شيئًا البتَّة، وقادر على الذهاب إلى الجحيم، ليحظى بغليان يشفي غليله اللا متناهي، الجاثوم أو شلل النوم لم يكُف عن زيارتي، دائمًا يأتي إليَّ، كنت أقاومه.. ولكنه دائمًا يعلن الفوز، وفي أحد الأيام استسلمت له بكامل إرادتي، جعلْتُه يعبث بي كما يشاء، ثم فاز مُعلنًا راية النصر، سُحقًا وألف سُحقٍ، وكان فوزه في ذلك اليوم هو أنه تَمَكَّن من أن أَخْرُج من جسدي، مُحلقًا عاليًا، تحديدًا دخلتُ في غرفة بإحدى بقاع الشقة، وجدتُ أمي تفعل وجبة ما على الغداء، ثم استيقظت من نومي، وبالفعل وجدتها تجلس نفس الوضع التي رأيتها فيه، وأمامها الأدوات والتجهيزات

الخاصة بالطعام، ذُهلت حينها عندما وجدتها تفعل تلك الوجبة ذاتها، لم أقتنع يومًا بتلك التجربة وما زلت، ولا أدري ما العلاقة بين شلل النوم وتجربة الخروج من الجسد! هل لديهم علاقة وطيدة متصلة ببعضهما البعض؟! استسلامك له أدخلك في مرحلة الخروج من الجسد الأسير، أحب المكوث خلف الكواليس؛ لأستطيع رؤية الحقيقة المبهمة، لتصبح واضحةً أمامي، وحين يأتي دوري لدخول المشهد، سوف يُذهَل المخرج من كشف الحقيقة، والتنقيب على آثار الدمار الذي تسبب به المخرج، لكشف ألاعيبه في ضحك الجمهور، للخراب الذي لم يَعُد سوى الحقيقة التي نعيشها، سأخالف طموح المخرج في تأدية مشهدي بجدارة، وأنهي كل سوء، وسوف أكون سببًا في إدخاله النعش، فقد سئمت من وضع المُهدِّئات والعقاقير داخل جيبي؛ حتى قُرِحَت معدتي من تعاطيه، فلم أجد سوى بقايا نفسٍ تعيش على مضادات الاكتئاب ومهدئات القلق، وكيف لذلك الشرطي الذي رأى شفرتي الحادة بحوزتي؟! كتب لي محضرًا بالواقعة، وتولَّت النيابة التحقيق في قضية هدم القيم الذاتية المبنية على براهين الاكتئاب المبتسم، حتى ارتسمت الابتسامة على وجه وكيل النيابة العامة، حين رأى الإرشادات الهامة في تعاطي العقاقير المضادة لدبابات عقلي، التي لم تكُف عن قذف ذخيرتها المتسببة بإصابة النفس الهشة بل بموتها، كإنسانٍ آليٍّ لا يرى! لا يسمع! لا يتكلم! مشلولٌ كُليًّا من معرفة مشاعره الحقيقية التي لم تجد اتجاهًا مُحددًا بعد، وتم إحالة أوراق القضية على فضيلة المفتي الخاص بإصدار الإعدام الفوري دون رحمة لتلك

النفس، وذلك المفتي هو العقل المختل، لا تعبث معي، لكي لا تضع نفسك تحت طائلة اكتئابي، أُتركني ماكثًا بصومعة المزاجية، ملتحمة بي، أشعر بهدوء وقلق وحب وكره ورغبة بالقتل أيضًا، ورغبة بالتقبيل من عدمها، الخيال أقوى من ترهات منطق العقل، فالجنون لديه رغبات كثيرة، ملامحي تساعدني كثيرًا حين يأتي الغزو عليها، عروقٌ منتفضة، ليس خوفًا بل لأرى رهبتك، وتنظر إلى فنجان قهوتي الذي أقبض عليه بشدة، وعروق يدي تكاد أن تخرج من مكانها، وتهاب منها خوفًا بأن أضعها على رقبتك.

- قال ليو تولستوي:"لا تحزن على شيء فقدته، فربما لو ملكته لكان الحزن أكبر"، يا سيف! المعاناة بها الإيجابية تغمُرها العشق في المعرفة للوصول إلى الحقائق المخيفة المخفية، دعهم يغشون بعضهم، ودعنا نحن في كونٍ مُوازٍ.

ولكن يا صفاء، منحتهم أمام الملأ الأعلى كل مشاركات تدل على العناق العملاق، الذي سوف يرتفع شأنهم من أجله، وذلك الأمر لا يمر به إلا الأبطال، المرض النفسي الذي نعاني منه، ونتحكم به ونواجهه هذا في قمة البطولة.

- الانزعاج مصدر من مصادر الألم، وسببه التعمق بتفاصيل أكثر، سواء للكون أو الغرق بداخل القلب والعقل، رافضٌ للحل ويظل يشك ويشك، عكس القلب؛ لأنه المسؤول عن المشاعر، وكلُّه يقين أنه على صواب، وهو يحمل الخطأ في كثير من الأحيان.

نعم يا صفاء، هي ماتت في يوم الزفاف، كنا نرقص سويًّا على أنغام الموسيقى، وكل الحاضرين مستمتعين لهذا الحدث، حتى اختل توازنها وسقطت أرضًا، وحينها كنت أبكي بكاء الطفل الرضيع الذي يشتاق لنهد أمه، الذي حدث هذا كان بمثابة فيلم لعين أحمق يشاهدونه بعض الحمقى على التلفاز، ثم يبكون، يتألمون لمشهد دراميٍّ بائس.

- جراء سقوط قذيفة صاروخية! هكذا هو الموت، يأتي في أي وقت دون ترتيب، حسب التوقيت الإلهي، ربما كنت أنت، وليست هي، وكانت ستحزن نفس حزنك وأكثر، لو تمَّت تلك الليلة على خير! ربما كنتم ستحظون بأن تقبعوا كلًّا منكم في غرفة منفصلة عن الثانية، ولا تحبون بعضكم البعض، وتكونُون منعزلين انعزال التعساءِ، احتراق الأعناق لا يعني الحب، ولكنك أحببت بصدق، لا أحد يدري تقدير الإله، في تلك المسألة أحيانا يقدر الله أمورًا لا نعلم ماهيتها! وتنتهي حياتنا بالموت المحتوم أفضل من التعمق بها، تجنبًا لأي حدث أسوأ من الموت.

كلامك يحمل الصواب لا يشوبه أي غبار لخطأ، ولكن يا صفاء! أنا أتألم حقًّا، لا أدري، متى سينتهي؟! ولكنني أعافر أن يتم تلاشيه، وكل ما أعلمه هو أنني معلق بمكان ليس به أيَّة علاقة بالإدراك، ولكنه له علاقة بالندوب والهراء، محكوم على القلب أن يكون عرضة للجنون.

- سيف! في إحدى المقولات التي قرأتها للكاتب الروسي ليو تولستوي يقول: "عندما تستطيع أن تقول بصدق، ومن كل قلبك: يا رب، يا إلهي!

قُدني إلى حيث تشاء، حينذاك فقط تتخلّص من العبوديّة، وتصبح حرًّا بحقٍّ"، إذن نفهم من هذا بأن عليك الاستسلام بكل ما أوتيت من قوة، وتقتنع بأن الحياة ليست عبثًا، ولن تتوقف على هذا الحدث المؤلم، استخدم قواك العقلية للنهوض مجددًا، ولا تكن عرضة لذلك الاكتئاب اللعين، الله لم يخلق شيئًا عبثًا، بل نحن الذي خلقنا ذلك العبث، وجعلناه يتحكم بنا، الإنسان مليء بالذنوب والمواقف السيئة، ولكن ستر الله لنا هذا، علينا أن نتخذ من المواقف التي تحدث حولنا جزءها الايجابي لا أكثر، ونجعلها في صالحنا ونتعلم منها، والأفضل والأهم أن لا نتوقف مطلقًا عند أي شيء سيء يحدث، فهذه ليست نهاية العالم.

قال أيضًا ليو تولستوي: "إنَّ لقوى الإنسان حدودًا، وقدْ بلغْتُ حدُودَ قوايَ"، ونفهم بأن لكل شخصٍ على هذا الكوكب، مهما بلغت قوته عنان السماء، له حدود محدودة من قواه التي يحملها، وفي أي وقتٍ سيقع، ولن يكون قادرًا.. سيضعف، سيموت بكل لحظةٍ، وهو ما زال يتنفس، يتألم ويتنفس، وهذا أقبح من الموت.

- متفقة معك تمامًا، ولكن لا للاستسلام ويجب أن يكون لديك مهام تفعلها، وتشعر من خلالها بالرضى حتى تكمل، الغرض من تلك المقولة هو أن لا تكف عن المحاولة، وتتخطى السيء لتعرف كيفية التعامل مع الأسوأ، أنك ترى نفسك عديم الفائدة والقدرة، وهذا الأمر لا يليق بك، الله أعطانا القوة العقلية لاستخدامها في الأمور الحياتية والمثابرة، والصبر والسلوان أمام الأحداث، وأن نأخذها مجرًى لحياة جديدة بأسلوب جديد مختلف عن القديم، عمق القاع لا فائدة منه؛ إن

مكثت به طيلة حياتك، كن كالخشبة التي تأبى النزول لعمق الماء وتظل تطفو فوقه.

صفاء.. لوهلةٍ نسيت صوت الأمان، وهذا بسبب همجية الحروب الداخلية، تركت آثارًا قابعة، ولا تزول، كطريح الفراش، كم كنت أريد تحقيق حلمها، ولكنها كانت ضعيفة مريضة، وكنت أحبها، قدمت لها الاعتناء؛ كأنها طفلتي المُدلَّلة، أصاب عقلي الضمور، أدى إلى فقدان خلايا الدماغ، من كثرة الصدمات التي أستقبلها، ولست قادرًا على الترحيب بها بصدرٍ رحبٍ.

- قال كاميلو خوسيه ثيلا وهو أديب إسباني: "أسوأ الشرور التي قد تصادف الإنسان؛ أن تساوره القناعة شيئًا فشيئًا، بأنه قد صار عاجزاً!"، نستفيد من تلك المقولة، بأن الإنسان قد كرَّمه الله تعالى في إحدى آيات القرآن الكريم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، لماذا نجعل العجز يساورنا، ولا نتفاداه ونمقته ودعسه، لكي نظهر أقوى كما صوَّرنا الله تعالى، لا تيأس، قال الله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}، لا تعجز، لا تضعف، واعلم أن ما أنت عليه الآن لا تتقبله، ولا تتصالح معه ومع ذاتك، عليك الاقتناع بكل يقين بأن الفرج سيأتي قريبًا.

ونعم بالله يا صفاء، سأشرح لكِ بعض الأمور، كنا تائهين للغاية، وبالأخص هي، خائرة القوى حائرةٌ، هما عاجزان عن إيجاد نفسيهما، أيها اللعين وأقصد المجتمع، فهي تبحث عني وأنا كذلك، دعنا نتدلل بالفلسفة الحمقاء، وأقصد العدمية منها والعبثية أيضًا، ولا ننسى

الوجود عند سارتر، وفلسفة شوبنهاور العدمية التي تجعل الوجود وهمًا، نعم كحالتنا تمامًا، ندخن سويًّا، ونحستي فنجان قهوتنا القاتم، ونضحك ببلاهة ولا مبالاة، ونستمتع بالحديث عن فلسفة كانط الجمالية والأخلاقية، وتتعالى ضحكاتنا أكثر وأكثر حتى النادل الذي قدم لنا القهوة يندهش منا، ونحتضن بعضنا البعض أنا وهي، ونخلق فلسفتنا التي تفتت ثنايا العقول، في حب النظرة الأولى، كنشأة الكون لأول مرة.

"سوداوية كافكا"

فرانز كافكا (٣ يوليو ١٨٨٣ – ٣ يونيو ١٩٢٤)، كاتب تشيكي يهودي كتب بالألمانية، رائد الكتابة الكابوسية، يُعدّ أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة، تُصنَّف أعماله بكونها واقعيَّة عجائبية، عادةً ما تتضمَّن قصصه أبطالاً غريبي الأطوار، يجدونَ أنفسهم وسطَ مأزِقٍ ما في مشهدٍ سرياليٍّ، يُعزى ذلك للمواضيع النفسية التي يتناولها في أعمالِه، مثل: الاغتراب الاجتماعي والقلق والذعر والشعور بالذنب والعبثيَّة، أكثر أعماله شُهرةً هي رواية المسخ، والمحاكمة، والقلعة، وقد ظهر في الأدب مصطلح الكافكاوية رمزًا إلى الكتابة الحداثية الممتلئة بالسوداوية والعبثية.

كافكا

"لا دخان في الأجواء، كيف أفسر احتراقي".

- عزيزي كافكا! الاحتراق النفسي ليس له علاقة باحتراق الرئة، قد فسرت سوداويتك المليئة بالعبثية، على أوراقك ورسائلك، أبدعت في الوصف الناتج من وحدتك القاسية التي تلقتها في حياتك، دون حبيبة صديقة، الجدران هي التي كانت تقرأها، في سبات عميق بطريقة غريبة وموحشة، مهلكة في اللا ملكوت، حظيت باهتمام كبير بعد موتك، لا تحزن! فكل العظماء هكذا، وقصتك لم تكتمل بعد.

من مقدمة (رسائل إلى ميلينا)

إن السهولة في كتابة الرسائل قد جلبت الدمار إلى أرواح الناس، كتابة الرسائل هي لحظات من تلاقي الأشباح، فهي استحضار لشبح المتلقي وشبح المرسل؛ ليتجسدا في كلمات الرسالة، وأحيانا في سرب من الرسائل، تتداخل سرًّا في كلمات الرسالة التي نكتبها، ولتكون شاهدة على ما جاء فيها.

- الدمار وما أدراك ما الدمار؟! إنه بركان ثائر، بعد انفجاره تتلاطم أمواج نيرانه، تأكل كل ما يقف أمامها، أنانية تلك النيران؛ فهي بمثابة عدو للأرض والإنسان والحيوانات والجماد، تأكلهم فتتفتت، وتصبح رمادًا متناثرًا في الهواء الطلق، له الحرية يذهب كما يشاء، مثل الرسائل تمامًا تذهب إلى حيث لا تحتسب، وردود الأفعال هي تلك الحالة التي تجعلك أشد قسوة أو لين، على حسب نوعها، ولكن الأمر لا يستحق

عناء التبرير من خلالها، سواء أخطئت أم لا، وهو أشبه بتبلل الأوراق وذوبانها بداخل الماء، كزئبق لا يتفاعل مع المياه.

"من كافكا إلى ميلينا"

إنني أرتعش فحسب تحت وطأة الهجوم، أعذب نفسي إلى درجة الجنون، في الحقيقة، حياتي، وجودي، إنما يتألف من هذا التهديد السفلي، فلو توقف هذا التهديد لتوقف أيضًا وجودي! إنه طريقتي في المشاركة في الحياة، فلو توقف هذا التهديد سأهجر الحياة بمثل سهولة وطبيعية إغلاق المرء لعينيه.

- الاغتراب الروحي يا كافكا عن ذلك المجتمع، وحدتك مأساة كبرى، ومشاركة في الآلام التي توغلت داخلك، غير جدير أنت بمجالسة الأطباء النفسيين، كنت أنت الجالس الأخرس دائمًا، مثل الكاذب الذي يجلس على مقعد الاتهام ليتم مُسائلته ليقول الحق ويظل يكذب، ويكذب، ولن يكُف عن الكذب، حتى يتم تعذيبه؛ ليتفوه بما يحمله داخله من صدق، كنت تتعلق للحد الذي لا يطاق؛ لذلك كنت بصراعٍ دائم، لا وجود لعالم مليء بالسلام والحب ولا حتى بالغناء، فكل ما يحدث مجرد هراء وكذب وتصنع وبلاهة وسذاجة، وفي النهاية سيهترئ الجسد ولم تُفِد الصدامات الكهربائية لتعيد إحياءه.

"من كافكا إلى ميلينا"

إنني أعيش هنا في خير حال، ولا يطيق الجسد الفاني مزيدًا من العناية، وتطل شرفة غرفتي على حديقة محاطة بسور، تزدهر فيها الشجيرات المزهرة، وتتعرض شرفة الغرفة لأشعة الشمس، تزورني في الغرفة السحالي والطيور وأنواع مختلفة من الكائنات، تزورني أزواجًا أزواجًا، إنني أرغب رغبة شديدة في أن تكوني هنا.

- الرغبة يا كافكا! رغباتنا في الامتلاك والحصول على رائحة أو طلَّة بسيطة، لأشياء لا نمتلكها، لكننا نظل نحبها من بعيد ونتمناها من أعماقنا، وإن لم نتمكن منها نتألم ونقدم اللعنات ربما نسُبُّ أنفسنا، بسبب إدمان الوهم الذي يفتتنا روحيًّا، وتظل شريدًا تختلس النظر من تلك الكائنات، والرغبة الجامحة هي احتضان شخصٍ ما، وهذا ما يؤلمنا أكثر.. احتياجاتنا للعناق ولشريك الحياة أمر مفروغ منه، ولكن.. لماذا لم ينتبه؟! ولماذا نحن لم نتقدم إليه سعيًا؟! لماذا لم نكُف عن محاولات تميت قلوبنا؟! لا أدري ماهية الأمر! من ناحية الرغبة في تناول لقاح ويسمى العناق.

من رواية "الانمساخ أو المسخ"

"عندما استيقظ غريغور سامسا من نومه ذات صباح عقب أحلام مضطربة، وجد نفسه قد تحول في سريره إلى حشرة عملاقة، كان مستلقيًا على ظهره المدرع القاسي، وعندما رفع رأسه قليلاً رأى بطنه المقوس البنيّ اللون، مُجزَّءًا إلى فصوص مقوسة قاسية، وغطاء السرير

المقلقل عند ذروة البطن يكاد أن ينزلق كليًّا، وكانت أرجله المتعددة رفيعة على نحو بائس، مقارنة بحجم جسمه".

- كم أنت عميقٌ يا كافكا! محيطنا عندما يسئم منا، فنحن في نظره مجرد حشرة قابلة للدعس في أي وقت، في العمل كذلك وحين تمل منك زوجتك، التقليل من شأنك بسبب خطأ بسيط للغاية لا يستدعي ذلك، فأصبحت ضئيل الحجم في نظرك وفي نظر زملائك، أصبحت غير جدير بالثقة ولا بالذكر، الاستهانة في حق نفسك، تجعل منك عرضة للدعس بدون رحمة، شعورك الدائم على فكرة أنك الأفضل سيجعل منك حشرة أيضًا؛ لأنك حينها ستكون مغرورًا، وستكون في كل وقت وكل حين ينظرون لك بكل شفقة؛ لأنك مَن سمحت لهم بذلك.

كافكا

يشعر بأنه سجين في هذه البلاد، يشعر بالضيق، يعتصره الألم والوهن والمرض، وأفكار السجناء الجنونية، لا عزاء يبعث في نفسه السرور؛ لأنه مجرد عزاء هش، عزاء يعصف برأسه ليقاوم به حقيقة السجن القاسي، لو سأله أحدهم عما يريده لن يعرف الإجابة! لأنها هي أحد الأدلة الدامغة على أنه لا يعرف شيئًا عن الحرية.

- رأسك تعتصر! ويخيل لك أنك قد تخطيت كل سوء وشرٍّ، ولكن روحك ماكثة في اللا مكان واللا زمان حيث اللا وجود، طامعٌ في الحرية، ولكن أي حرية تتحدث عنها؟! ولو كانت لديها بخار كنت استنشقته ليشفيك، لها مبادئ لتكون سوية مسؤولية كبيرة، الأحرار

الحقيقيون هم مَن يدركونها جيدًا، إنما مَن يدعي التحرر ستجد تصرفاته مليئة بالهمجية والفوضى بحجة أنه شخصٌ حرٌّ يحلق في سماء من جحيم؛ لأنها ستؤدي به حتمًا إلى السجن أو المصحة العقلية، بالنسبة للسجون فهناك ما أشد من سجون البلاد ظلمًا، هو العقل البشري يا كافكا، طريح ذكريات الماضي وحنينه لها، النوستالجيا مرض يجب المعالجة منه فورًا؛ لأن الزمن قد توقَّف بتوقيت العقل.

"النجات"

سهرة خاصة من نوعٍ فريد، على أنغام الموسيقى التي تسبب إصابة الجميع بالدهشة؛ لأنها مختلفة، في أحد القصور المتواجدة على الطريق الصحراوي، الذي يؤدي إلى حتمية عدم الوصول، لتتوقف عند قصرٍ واحد معين بالإجبار وليس بالاختيار، سيارتك ستتوقف أمامه فجأةً، وكأن الوقود قد انتهى بها، وستنظر إلى المؤشر الذي يحدد قياس الوقود ونسبته لتجده ممتلئًا، تقوم بالنزول منها وتبحث عن سبب العطل، تجد كل شيء على ما يرام، وحين تنظر إلى ذلك القصر الذي يغمُره ضوء القمر عموديًّا عليه؛ تنتشي وتندهش أكثر من شكله وطرازه، والتماثيل التي تراها ما هي إلا عبارة عن شخصين يتبارزان بالسيوف، وآخرين يتبادلون القبلات، وآخرين يمارسون الملاكمة

التايلاندية، وأحدهم يركب على حصانٍ ويرفع سيفه للأعلى، وتمثال غريب جدًّا! عبارة عن مخ إنسان من الداخل ولكن به تفاصيل غريبة مريبة، تدل على هول الصدمة النفسية، وطريقة تفكيره سواء كان محدودًا أو لا؟! النحات الذي فعل هذا مبدع مخيف، يطارد التفاصيل، والتفاصيل تطارده، اللعنة على هذا الأمر؛ لأنه بالفعل مميت، جزء منك تائهٌ عنك، ستجده بالمخ الحجريّ، بعض الخيوط الرقيقة المصنوعة من الجير الأبيض متشابكة يصعب فكها وفهمها، وإن حاولت التقرب منها ستتفتت إلى رماد، وأيضًا هناك طفلٌ رضيعٌ يبكي وفمه مفتوح على مصراعيه، ينظر إلى أبيه، يضرب أمه ضربًا مُبرحًا، هو فقط جائع، ولا يدرك ما يحدث! منحوت به رجل جالس على المقعد، وأمامه قنينة الخمر وكأس، ويستمتع بالاحتساء، وعيناه ونظراته تداعب الراقصة، وآخر ساجد لله بداخل المسجد، وبكاؤه ظاهر على وجهه، ويتوسل ويطلب رحمته، يا له من عقل ذلك الإنسان وما يحمله؛ إنه عجيب! منحوتة أخرى بداخل ذلك التمثال عبارة عن فتاة تشد شعرها بيد واحدة، واليد الثانية بها الشعر الممزق بفعل الشد، وملامحها تدل على أنها تصرخ من شدة الألم، يا له من فن! ذلك النحات قادرٌ على نحت الحجر بتفكير الشخص من ندوب ونزوات وأحداث تدور داخل جمجمته، ولم ينسَ رسم الحنان بمشاعره وقلبه لم يكُف عن عطاء حق الرسم، رسم سحبًا وأمطارًا من دموع الفرح والحزن، وأحدهم معلق على الحائط مشنوق، والآخر يقطع أوتار يديه بالأداة الحادة، وهناك شخصٌ يقفز في النهر ولا يصارع الموت، مستسلم له تمامًا، وهناك مَن

يفقز من أعلى المبنى، ياللهول! إنه ما يدور بأذهاننا من أفكار انتحارية، واستهدفت سيارة مسرعة تسير بشكلٍ معاكس للطريق ومساره الصحيح، وفجأة اصطدمت بسيارة إسعافٍ مجهزة بأحدث التقنيات الحديثة وانفجر كلاهما، ولم يتبقَ منها أي أشلاء، احترقوا حتى لم يعد سوى الدخان المتصاعد جراء الحادث، من جنون وعدم استقرار الأوضاع بكافة أنواعها وأشكالها، وهناك أيضًا قلب بداخله نيران متفحم، العاصي، والزاني، والسارق، والشرس، والضعيف، ومَن يقتل زوجته الحامل بطفلٍ بريء بسبب أمر في غاية التفاهة، ولكننا نتفنن بالتعقيد، ومَن يقتلٍ أخاه بسبب الميراث والأراضي الزراعية منها والسكنية، يا للحماقة! وأيضًا هناك أحداث دموية، ولا يزال هناك قلب ينبض ولديه القدرة على عدم إخفاء الأمل والتمسك بالحياة، ثم ينتهي بدون أي مبررات واهية، الغدر جبلٌ من جبال الحقد والكره الدفين بداخل عقولنا وقلوبنا، وتنهش من أرواحنا، وهناك مَن يطعن عدة طعنات، ولكن ليس بسكينٍ حادٍّ، لا ليس هكذا، ولكن الأمر أكبر من ذلك؛ حيث إن هناك صديقًا ظلَّ يبحث عن ما يهدئ شهوته، ولجأ إلى أخت صديقه منذ الطفولة وأخته ليست جميلة للحد الذي يجعل من الشخص يخون، جمالها طبيعي محدود، ولكن حين تحكم الشهوة الجنسية يتوقف العالم وتزول الرؤية من جميع الاتجاهات، سواء الفكرية منها أو المجتمعية، لا يفكر سوى في ذاته، والأهم لديه إشباع نزواته، عدم الأمان أصبح مُبهمًا خارج نطاق الخدمة، لا تثق في بشريٍّ؛ لأنه سيخون، سيقتلك، سيؤدي بك إلى حيث لا تحتسب، أفكار جديدة

وأساليب أَجْدد للشر، لا لا تكُف عن مضاجعة الرأس، الشراكة المشروعية انتهت بسبب نزاع رأسمالي ينازع من أجل الحصول على المزيد، إقامة علاقات التعاون بين الحرب والحب؛ لتدمير جهة من جهات الاتصال الروحي، لقداسة سيادة الأنانية مهمة وجب التنويه عنها، ليس كل شبحٍ لا يظهر هو مُؤذ، فهناك ما أخطر من الأشباح، وهو الإنسان.. يسعى في الأرض فسادًا، بحثنا عن كل شيء من أجل الحصول وما أدراك ما الحصول؟! حين يريد التجربة من أجل الحفاظ على مركزه يسعى دائمًا في صنع حدث يتنافى مع الفطرة الإنسانية التي أصبحت مهترئة مليئة بالأخطاء والعبث، الحب حيث الكآبة، القبح حيث الجمال، السهل حيث عدم الوصول، الصعب موصول لكل ممنوع، الخيبات مخبئة خلف الابتسامات، فرض الرأي به غرامات تدفع ثمنها روحٌ مجبرة على سماعه، الفقر بعد أن كان ليس عيبًا أصبح عيبًا، وربما يقومون بتحريمه، والدافع للثمن هو مَن يرفض الفقر؛ فيصبح فريسة سهلة الاستخدام لفئران التجارب، الاغتيال أصبح مُتاحًا، التفجير وإراقة الدماء مباح، محتوى مفقود ومشوش من خلايا المخ تدل على عدم اتزان وانتظام، وعدم القدرة على استيعاب الوضع السيء، الحديث أصبح مليئًا بالمرض، وليس له علاج أو لقاح مضاد لذلك الفيروس النفسي، الفيروسات التي تصيب الجسد أصبحت أكثر رحمة منا، خراب ضياع أجيال، ينتظرنا مستقبل ضَحْل، كأَدنى مُستوًى يَهبط إليه ماء النَّهر في السَّنة، النفوس امتلأت بالقبح أكثر من ثمل السكارى، لا عنوان للرواية، ولا مشهد دماء المسرح صائب، ها قد

اقتربت النهاية، مسارح الدنيا مليئة بخيبة خائب، أحبها وقام بالبوح، وقامت بالرفض بكُل قُبح، تحمل الكثير من فيض المشاعر، الحب في حب المحبوب قائم على اغتيالك، لا أنطق عن الهوى؛ لأنني استنشقتُ هواكِ، تبًّا لكِ ما أحلاكِ! عشقت مكنونك، موافق أن أكون مجنونك، ربما مثل دافنشي حين قرَّر أن يرسمك، أعلن عشقه حين انتهى في حب رسمة، ملامح شَفَتَيْها بابتسامتها أصبحت مرتسمة، لوحة أخرى أقصد جريمة أخرى، بقاء وذهاب، ولكن اختار الذهاب بلا عودة، أصبح مريض اكتئاب، ونوبات هلعه ووعكه كاملة النِّصاب، صرخات مليئة بالضحكات، على أمل غائب، في اختيار غير صائب، حدسه يتبعه في نهاية المشهد، أعلن حداده على حب ألحد، وفجأةً وعقلي منشغل بالتأمل أربت على كتفي النحات، كنت قد ظننته توفي، ولكنه حيٌّ يُرزَق، وقال: لا نملك ثمن السعادة، ولكننا نظل ندفع المال من أجلها، وحين ينتهي شغفنا بها نمكث بمنتصف الليل اللعين، وكل ما يتجول أمامك ستجد المزيد من جلد الذات أثناء تلك الفترة التي تحدث كل ليلةٍ، حتى تصبح مسخًا! عقلك يصور لك أنك قد تحولت إلى ثعبان الكوبرا، ربما أو دودة قز، وتتخيل أنك بداخل اللحد، ولا يكُفُّون عن ردم جسدك بالتراب، وتزعر وتخاف وتثور، ثم تستيقظ من حلم اليقظة الذي يشير إلى إصابتك بنوبة هلع حادة، الخوف من المجهول القابع بذهن كل منا، مهما سلمت الدروب لن تصل وإن وصلت سيتضح لك كل ما تخاف منه وتخشاه.

- أيها النحات، أنت جعلتني أفكر كثيرًا نحو ذلك التمثال بالأخص، وأدركت جيدًا حجم المأساة الإنسانية، نحن نصل من أجل إشباع رغبة الحصول على النجاح.

أي نجاح بالضبط؟! كل مَن حولك يقدم لك الخزي بكل بساطة وسهولة، وأنت تدل، تعمل بجد، ولا تكُف عن العمل، وحين تنجح وتترك لك أثرًا واقعيًا يلتفون حولك كالثعابين ويسألونك.. كيف وصلت إلى هنا؟! ثم تجيب بعدم صدقكم بي وإيمانكم بقدراتي، واتخذت كل هذا في صالحي؛ كالسهم الذي يرجع للوراء كي يصيب الهدف، وأنتم كنتم صادقين للحدِّ الذي يجعلكم ساخرين من طموحنا، وها أنتم تسألون وتريدون الوصول ولكن.. هل جربتم احتساء الألم الذي أنتم متسببون به؟ بالطبع لا، وليس لديكم القدرة على فعلها، النجاح يحتاج إلى الألم، المعاناة، العقبات، وفوق كل هذا التحديات، ولكن يا لكم من حمقى! تريدون تحكيم برنامج مجهز بالكامل على طاولة مستديرة الشكل، لتأخذون مجهودنا، ومن جهة أخرى لا تريدون الإنصات إلى العتاب، حيث تجد الأحذية التي تدعسك وتميتك وتشعر بأنك مجرد حشرة حينها، كم أنتم أشد قسوة، وتلك القسوة والأيام العصيبة التي قمت بانتشالها؛ لكي أثبت لكم حتمية الوصول، ها أنا قد وجدت ضالتي وأضحك بهستيريا وشفقة عليكم.

- انتهت قصتهم بنهاية رؤيتهم لنجاحك أيها النحات صحيح.. ما اسمك؟

لا يهم الاسم يا رفيق، أحبذ أن تناديني كما تعودت على مناداتي.

- حسنًا على أي حال اسمي أمير، وأحب أن أطرح عليك، بأن كل ما يتعلق بالفرص فالإنسان حينها يكون انتهازيًّا للغاية، وكما تعلم أننا نعيش بغابة، وهنا المعضلة والعقبة المنتشرة داخل معظم مناطق مملكة ذلك المخ، التي تدل على عدم إخفاء الملفات المرفقة بالقرار الذي سوف يرتفع شأنك من خلاله، الجميع يبحث عن ضالته، ويشبع بها حين ينالها، ويقدم لها الحب، ولكن بكل جدية، وليس مثلما فعلوا؛ تظاهروا أكثر بالحب حين وجدوك ناجحًا، وباتت عقولهم تنبع تساؤلات حول هذا، ولكن دون جدوى! قد فات الأوان.

الدنيا ملهى ليلي كبير، بها الظالم يدعي أنه مظلوم، ولا يحمل أي ذنب، هناك السكير المخمور المدمن للكحول، ولكنه يحمل قلبًا صادقًا! وهناك مَن يقدم النصائح والمواعظ ولكنه لا يفعل بها، يقدمها للآخرين لا أكثر من هذا، ويفعل العكس والمُحرم! وهنا يذهب الإيمان هباءً، يعلقوننا، يحمون وجودنا، ونحن نمتلك الإرادة برمتها في تحليل الأمور على نهج صحيح، وهنا تَكمُن المأساة الكبرى حين يتم إنتاج جيل كامل يعيش على اللا مبالاة وفكرة اللا أمل، تحدث الكوارث، حين يتم فهم الحرية بشكل خاطئ، يرجى التوجه إلى المصحة لمعالجة الأمر، الحرية لها أسبابها ونتائجها، ولكن الفكرة هي في كيفية استخدامها! على النحو الذي يليق بها، ولأننا لا نمتلك فكرًا حقيقيًّا وعدم الإيمان بقدرة الفكر بأنواعه المختلفة؛ فلن نكون أحرارًا، وحين نقوم بتفسير ماهية الأمور دون الاستناد إلى دليل واضح أننا نسير بشكل صحيح هذا

أكبر خطأ، طالما أهواؤنا ورغباتنا وتفكيرنا يتحكمون بنا، وتدفعنا لفعل الخطأ؛ فهذا هو الفهم المغلوط ذاته، حواسنا الخمس التي تعمل بشكلٍ جيد يجب اتخاذها على محمل الجد، وهذا لا يُعَد هراء، بالعكسِ يجب علينا الاستماع لها بكل ما أوتينا من قوة، لنفتت ثنايا الوهم والعادات والتقاليد والأعراف الخاطئة؛ لنحظى بكل تجديد، وحينها سنكون في غاية الاستمتاع، والأهمية هي تجديد نوايانا، وعدم تبرير أفعالنا؛ لنظهر بصورة عامة في غاية الجمال، لا لا، الاعتراف بالخطأ أولى وسائل التحرر، وكثرة التبرير إحدى وسائل التصنع وادعاء المثالية.

تسليط الضوء على رينيه ديكارت، وهو من كبار الفلاسفة، وله تحليل خاص جدًّا للمعرفة، وقمت بنقل ذلك المقال من موقع (ويكيبيديا)؛ لكي تعم الفائدة من مقصده، والغرض من كتاباته.

"رينيه ديكارت"

- حياته:

ولد ديكارت في ٣١ مارس عام ١٥٩٦ م في مدينة لاهي آن تورن الفرنسية، لكن أسرته كانت ترجع في أصلها إلى هولندا. ينتمي ديكارت إلى أسرة من صغار النبلاء، حيث عمل أبوه مستشارًا في برلمان إقليم بريتانيا الفرنسي، وكان جده لأبيه طبيبًا، وجده لأمه حاكمًا لإقليم بواتيه، وفي عام ١٦٠٤ م التحق ديكارت بمدرسة لافلشي La Fliche، وهي تنتمي إلى طائفة دينية تسمى باليسوعية، وقد تلقى ديكارت فيها تعليمًا فلسفيًّا راقيًا يعد من أرقى الأنواع في أوروبا، وبدأ فيها ديكارت في تعلم الأدب، والمنطق، والأخلاق ثم الفلسفة، وأخيرًا الرياضيات والفيزياء. ونال إجازة الحقوق من جامعة بواتيه حيث تخرج ديكارت من الكلية عام ١٦١٢ م حاملًا شهادة الليسانس في القانون الديني والمدني عام ١٦١٦م.

وعلى عادة النبلاء في ذلك العصر؛ نصحه أبوه بالالتحاق بالجيش الهولندي، إذ كان هذا الجيش أفضل جيوش أوروبا نظامًا وخبرة، وكان يشكل مدرسة حربية لكل من أراد أن يتعلم فن الحرب، وبالفعل رحل ديكارت إلى هولندا عام ١٦١٨م، وتعرَّف هناك على طبيب هولندي يُدعى إسحاق بيكمان، وكان متبحرًا في العلوم، وشجَّعه على دراسة الفيزياء والرياضيات وعلى الربط بينهما، وكانا يمارسان معًا طريقة جديدة في البحث تطبق الرياضيات على الميتافيزيقا، وترد الميتافيزيقا

إلى الرياضيات، وقد كان لهذه الطريقة أبلغ الأثر في تطور ديكارت الفكري وفي تشكيل فلسفته، إذ إن منهجه ومذهبه الفلسفي لن يختلف كثيرًا عن طريقة البحث هذه.

تطوَّع للخدمة في الجيش الهولندي عام١٦١٨ م، وخاض معه عدة معارك، وفي عام ١٦٢٢ م عاد ديكارت إلى فرنسا وصفَّى جميع أملاكه ليستثمر الأموال في تجارة السندات المالية، وقد أمنت له دخلًا مريحًا لبقية حياته، وفي الفترة بين ١٦٢٨ م و١٦٤٩ م عاش ديكارت حياة علمية هادئة في هولندا، وألَّف فيها معظم مؤلفاته، والتي أحدثت ثورة في مجالي الرياضيات والفلسفة.

غادر ديكارت هولندا عام ١٦١٩م وذهب إلى ألمانيا، وهناك اكتشف الهندسة التحليلية التي اشتهر بها ووضع يده على قواعد منهجه الفلسفي، وفي عام ١٦٢٠م بدأ في السفر مُتنقلًا بين العديد من المدن الأوربية لمدة تسع سنين، وفيها باع أملاكه التي ورثها عن أمه، وعرض عليه أبوه أن يشتري له وظيفة حاكم عسكري فرفض ديكارت وآثر أن يعيش حياة العزلة، وفي عام ١٦٢٨م غادر فرنسا إلى هولندا؛ حيث قضى فيها فترة كبيرة من حياته، والذي جعله يفضل هولندا أنها كانت آنذاك من أقوى وأغنى الدول الأوروبية وأكثرها ازدهارًا في العلوم والفنون. وفي عام ١٦٢٩م بدأ ديكارت في كتابة رسالته «العالم Le Monde»، وفيها يبحث في الطبيعة على أساس النتائج التي توصل إليها كوبرنيكوس وكبلر وجاليليو في النظام الشمسى ودوران الأرض حول الشمس، لكن حدث أن أدانت محكمة التفتيش والكنيسة

الكاثوليكية في روما العالم الإيطالي جاليليو عام ١٦٣٣م ، خوفًا من أن تُؤدِّي آراء جاليليو الجديدة إلى سقوط الاعتقاد القديم بأن الأرض ثابتة في الكون والنجوم والكواكب تدور حولها، وعندئذ خَشِيَ ديكارت أن يكون مصيره نفس مصير جاليليو، فلم يكمل الرسالة، وكاد أن يُحرق أوراقها، وعزم على ألا يكتب أي شيء على الإطلاق، مما أدى إلى توقف ديكارت عن نشر بعض أفكاره، وفي عام ١٦٤٣ م أدانت جامعة أوتريخت الهولندية الفلسفة الديكارتية، وفي هولندا تتلمذ في علوم الرياضيات على يد الأستاذ ياكب يوليوس في جامعة لايدن.

لكن سرعان ما أدرك ديكارت أنه لا يمكن أن يتوقف عن الكتابة نهائيًّا، وهو الفيلسوف الذي بدأ صيته ينتشر، وعندما أحسَّ أن الناس يتشوقون لمعرفة فلسفته عكف على الكتابة مرة أخرى، وأخرج ثلاث رسائل تدور كلها حول الموضوعات الرياضية والطبيعية، وهي عبارة عن انكسار الأشعة والأنواء الجوية والهندسة، وقدم لها بمقال صغير وهو «مقال عن المنهج» عام ١٦٣٦م، وبلغ حدُّ خوف ديكارت أن طبع الكتاب دون أن يكتب اسمه على الغلاف، وقرَّر ديكارت أن يضع مذهبًا للفلسفة ويطبقه على الميتافيزيقا؛ فأخرج عام ١٦٤١م كتاب «التأملات في الفلسفة الأولى»، الذي أهداه إلى الأميرة إليزابيث البلاتينية التي راسلها كثيرًا، وأخذ يشرح لها فلسفته ويناقشها في أمور الأخلاق والسياسة، وعندما ذاعت شهرته وضع له ملك فرنسا راتبًا سنويًّا يقدر بثلاثة آلاف جنيه عام ١٦٤٧م، لكنه لم يتلق منه شيئًا؛ إذ آثر حياة العزلة، وفي عام ١٦٤٨م تعرَّف على ملكة السويد كريستينا التي

ناقشته طويلًا في فلسفته عبر سلسلة من الرسائل، وأصرَّت على دعوته للسويد؛ ليكون عونًا لها في إدارة الحكم وشؤون البلاد كمستشار، وعندما قبل الدعوة سافر إلى استوكهلم عاصمة السويد في أواخر عام ١٦٤٩م، وكانت الملكة تتردد عليه طويلًا لمناقشته في فلسفته، لكن الطقس البارد للسويد لم يكن مناسبًا لصحته، فأصيب بالتهاب رئوي، فرفض نصائح الأطباء وآثر أن يعالج نفسه بنفسه، وعندما اشتد عليه المرض توفي في ١١ فبراير عام ١٦٥٠م.

- أهم أفكاره:

نظرية المعرفة: شك ديكارت في المعرفة الحسية، سواء منها الظاهرة أو الباطنة، وكذلك في المعرفة المتأتية من عالم اليقظة، كما شك في قدرة العقل الرياضي على الوصول إلى المعرفة، وشكَّ في وجوده، ووجود العالم الحسي، إلى أن أصبح شكه دليلًا عنده على الوجود، فقال: "كلما شككت ازددت تفكيرًا؛ فازددت يقينًا بوجودي".

- المنهج الديكارتي:

هو المنهج الجديد في الفلسفة، وبسببه سُمِّي ديكارت بـ:"أبو الفلسفة الحديثة". إن من درس فلسفة ديكارت يندهش عندما يعلم أن تخصص ديكارت الأساسي لم يكن الفلسفة بل الرياضيات والجبر والبصريات، فالمطلع على مجمل أعماله يلاحظ أنها تشكل عدة مجلدات، تعد ستة مجلدات من القطع الكبير في بعض الطبعات، تَنصبُّ أساسًا على الموضوعات الرياضية والهندسية، ولا تحتل أعماله الفلسفية التي

اشتهر بها سوى جزء ضئيل لا يكاد يصل إلى نصف مجلد، لقد كان ديكارت رياضيًّا في الأساس، ولم يكن فيلسوفًا إلا في أوقات فراغه من دراساته الرياضية، لكن هذا الجزء الفلسفي الصغير نسبيًّا من مؤلفاته هو السبب في شهرته كفيلسوف، وهو الذي صنع منه مؤسس الفلسفة الحديثة، ومعنى هذا أن الجزء الفلسفي من أعماله يعد ملحقًا على أعماله الرياضية الأساسية، أو هامش فلسفي على متن رياضي هندسي، ويرجع السبب في ذلك إلى أن ديكارت الذي شهد درجة النجاح المذهل الذي حققته الرياضيات في عصره من دقة المنهج ويقين النتائج التام أراد للفلسفة أن تصل إلى نفس الدقة المنهجية واليقين المطلق الذي وصلته الرياضيات في عصره وعلى يديه هو شخصيًّا، ويتمثل تأثر ديكارت بالمنهج الرياضي في فلسفته في سعيه نحو الوصول إلى نقطة أولى يقينية واضحة بذاتها، يؤسس عليها فلسفته كلها، وهي وجود الأنا أفكر. فهذا الأنا أفكر كان بالنسبة له المبدأ الأول الشبيه بمبادئ الرياضيات التي تؤسس لكل المبرهنات الرياضية التالية عليها، كما يسير ديكارت بالطريقة الاستنباطية السائدة في الرياضيات في مذهبه الفلسفي حيث يستنبط وجود الإله والعالم وخلود النفس من وجود الأنا أفكر، ويقوم المنهج الديكارتي على أساسين، هما:

١ ـ البداهة: أي: التصور الذي يتولد في نفس سليمة منتبهة عن مجرد الأنوار العقلية.

٢ـ الاستنباط: أي: العملية العقلية التي تنقلنا من الفكرة البديهية إلى نتيجة أخرى تصدر عنها بالضرورة.

والحقيقة أن محاولة الوصول إلى اليقين في الموضوعات العلمية والفيزيائية سهل يسير باتباع الطريقة الرياضية، لكنه ليس كذلك بالنسبة للموضوعات الميتافيزيقية، فلا يمكن التعامل مباشرة مع موضوعات مثل وجود الإله وخلود النفس بالطريقة الرياضية، وقد كان ديكارت صادقًا في ذلك مع نفسه، إذ إنه لم يبدأ دراسة هذه الموضوعات مباشرة، بل وضعها كلها موضع الشك وتوقف عن الحكم عليها منذ البداية، يقول ديكارت في التأمل الأول: «وإذا لم يكن في مقدوري الوصول إلى معرفة أي حقيقة، فليكن أن أفعل ما هو في مقدوري على الأقل، أي: التوقف عن كل حكم، وأتجنب أن أعطي أي مصداقية لأي شيء باطل».

وعندما فكر ديكارت في وضع منهج في الفلسفة أقامه على أساس أسلوب التفكير الرياضي والهندسي، وهذا هو المعنى الحقيقي لقواعد المنهج الأربعة التي وضعها في كتابه «مقال عن المنهج»؛ تنص القاعدة الأولى على «ألا أقبل شيئًا على أنه حق ما لم أعرف يقينًا أنه كذلك، بمعنى: أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك».

وتسمى هذ القاعدة بقاعدة اليقين؛ لأنها تدخل إلى يقين بديهي بسيط لا يتطرق إليه شك، ويتضح ارتباط هذه القاعدة بالهندسة الرياضية من الأمثال التي يضربها ديكارت عليها، فاليقين عنده هو القول بأن المثلث هو الشكل المكون من ثلاث أضلاع، وأن المساويَيْن لشيء ثالث

متساويان. ولا يهدف ديكارت من هذه القاعدة تأسيس الرياضيات أو الهندسة على أسس يقينية؛ ذلك لأنهما مُؤسَّسان على اليقين بالفعل، بل يهدف استعارة هذا اليقين الرياضي والهندسي لتطبيقه على موضوعات الفلسفة، وعندما نطبق هذه القاعدة على الفلسفة تبدأ باعتبارها شكًّا منهجيًّا، ذلك لأنها تنص على «ألا أقبل شيئًا على أنه حق ما لم أكن على يقين أنه كذلك»، فنص القاعدة يبدأ بالسلب، أي: بألَّا يقبل شيئًا، وهذا هو الشك الذي هو الخطوة الأولى في المنهج الفلسفي عند ديكارت، ومعنى هذا أن قواعد المنهج عامة وكلية، وعندما تتم مناسبتها كموضوعات الفلسفة لوضع منهج خاص بالفلسفة تنقسم القاعدة الأولى إلى خطوتين، الخطوة الأولى: هي الشك في كل شيء شكًّا منهجيًّا للوصول منها إلى يقين أول، فبعد أن يشك ديكارت في وجود العالم، ينطلق من هذا الشك نفسه ليتوصل إلى أول يقين، وهو أن الشك يتضمن التفكير، والشخص الذي يفكر يجب أن يكون موجودًا.. أنا أشك إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود.

وتنص القاعدة الثانية على: «أن أُقسِّم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع، على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلِّها على ذلك»، وتسمى هذه القاعدة بقاعدة التحليل، وتقول القاعدة الثالثة: «أن أُسِّير أفكاري بنظام، بادئًا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة، كي أتدرج قليلًا قليلًا حتى أصل إلى مُعرَّف أكثر ترتيبًا، بل وأن أفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع»، وتسمَّى هذه القاعدة الثالثة بقاعدة التركيب، أما القاعدة الرابعة والأخيرة فهي تنص على:

«أن أجري في كل الأحوال الإحصاءات والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئًا»، وتسمى هذه القاعدة بالاستقراء التام.

وبذلك فإن قواعد المنهج الأربعة، من يقين وتحليل وتركيب ومراجعة واستقراء، هي نفسها طريقة التفكير المتبعة في الرياضيات والهندسة، ويحاول ديكارت تطبيقها على موضوعات الفلسفة؛ لأنه أراد الوصول في الفلسفة إلى نفس درجة الوضوح واليقين الذي وصلت إليه الرياضيات والهندسة.

إن ديكارت لا يطبق المنهج الرياضي نفسه على الفلسفة، بل يطبق طريقة التفكير في الرياضيات، فإذا كان يستعير المنهج الرياضي فهو لا يتبع طريقة البدء بالبديهيات والمسلمات والفروض، ولانطلق منها إلى مبرهنات ثم قضايا تلزم عنها ضرورةً، ولو كان قد فعل ذلك لرأينا مؤلفاته الفلسفية تأخذ شكل الاستنباط والبرهان الرياضي، لكن لا تظهر طريقة الاستنباط الرياضي في فلسفة ديكارت، وكل ما يستعيره من الرياضيات هو طريقة التفكير المتبعة فيها وحسب، والملاحظ أن طريقة البرهان الرياضي الهندسي، والتي لم يتبعها ديكارت قد اتبعها من بعده سبينوزا بحذافيرها، وبذلك يكون سبينوزا قد سار خطوة أبعد من ديكارت؛ ذلك لأن ديكارت اتبع مجرد طريقة التفكير في الرياضيات، والتي تتمثل في القواعد الأربعة: اليقين أو الوضوح، والتحليل والتركيب والاستقراء التام، وما رفضه ديكارت وهو تطبيق المنهج الهندسي من تعريفات ومصادرات، ثم مبرهنات وقضايا

مستنبطة منها قد تبناه سبينوزا نجده بحذافيره، وهكذا يكون سبينوزا أكثر جرأة وثورية من ديكارت الذي وقف عند حدود التفكير الرياضي فقط، ولم يصل إلى درجة تطبيق المنهج الرياضي الهندسي نفسه في الفلسفة.

- الثنائية الديكارتية:

يفرق ديكارت بين النفس والجسد، ويرى أنهما جوهران مختلفان تمامًا، ويقول:"إنني لست مقيمًا في جسدي كما يقيم الملَّاح في سفينته، ولكنني متصلٌ به اتصالًا وثيقًا، ومختلطٌ به بحيث أؤلف معه وحدةً منفردةً، ولو لم يكن الأمر كذلك؛ لما شعرت بألم إذا أصيب جسدي بجرح، ولكني أدرك ذلك بالعقل وحده، كما يدرك الملَّاح بنظرة أي عطل في السفينة".

- الإله:

يعتقد ديكارت أن الإله يشبه العقل من حيث إن الإله والعقل يفكران، ولكن ليس لهما وجود مادي أو جسمي، إلا أن الإله يختلف عن العقل بأنه غير محدود، وأنه لا يعتمد في وجوده على خالق آخر، ويقول:"إنني أدرك بجلاء ووضوح وجود إله قدير وخَيِّرٌ لدرجة لا حدود لها".

- الأخلاق :

جعل ديكارت علم الأخلاق رأس الحكمة، وتاج العلوم، وأنه لابد من الاطِّلاع على كل العلوم قبل الخوض في علم الأخلاق، وقال:"مثل الفلسفة كمثل شجرة جذورها الميتافيزيقيا، وجذعها العلم الطبيعي، وأغصانها بقية العلوم، وهذه ترجع إلى ثلاثة علوم كبرى، هي: الطب، والميكانيكا، والأخلاق العليا الكاملة، وهذه الأخيرة تتطلب معرفة تامة بالعلوم الأخرى، وهي أعلى مراتب الحكمة".

ومن العجيب أن مذهب الشك الديكارتي لم يصل بديكارت إلى الإلحاد، بل لقد كان مؤمنًا بوجود الإله، ولكنه أوصل الكثيرين إلى الإلحاد.

- الميتافيزيقيا :

١-نظرة عامة على كتاب «التأملات في الفلسفة الأولى»

ينقسم كتاب «التأملات في الفلسفة الأولى» إلى ستة تأملات، في التأمل الأول يطبق ديكارت نظرته المنهجية الأولى وهي الشك، ويتناول فيه الأشياء التي يجب أن توضع موضع الشك، ومبرراته لهذا الشك، ويصل إلى الشك في كل شيء، وفي التأمل الثاني يصل إلى أول يقين واضح بذاته، يقدم نفسه بعد خطوة الشك، وهو وجود الفكر أو العقل الإنساني، ويميزه عن الجسد، ويذهب إلى أن معرفته أيسر وأوضح من معرفة الجسد، وبعد أن يثبت ديكارت وجود الفكر ينتقل في التأمل الثالث إلى إثبات وجود الإله، ويقدم ثلاثة براهين على وجوده، وفي

التأمل الرابع يميز بين الصدق والكذب أو الوضوح وعدم الوضوح، وفيه يشرح بمزيد من التفصيل بعض موضوعات التأمل الأول والثاني حول العلاقة بين النفس والجسد وحول الإله، وفي التأمل الخامس يتناول ماهية الأشياء المادية، ويقرُّ بأن ماهيتها الامتداد، وأن ماهية الإله الروح والفكر، وتظهر في هذا التأمل ثنائية ديكارت الشهيرة بين الفكر والامتداد، وأنهما جوهران متمايزان، وفي التأمل السادس يتناول وجود الأشياء المادية ويثبت أنها زائلة، ويميز بين النفس والجسد، ويثبت أن الجسد فانٍ والنفس خالدة، والحقيقة أن هذه التأملات الستة متداخلة، فالشك المنهجي الذي يتناوله في التأمل الأول يعاود الظهور في كل تأمل تالٍ؛ إذ يستخدمه في التمييز بين النفس والجسد والجوهر الفكري والجوهر الممتد، على أساس شكِّه في كمال الجسد وفي الوجود الحقيقي للأشياء الممتدة، وإثبات وجود الإله الذي يظهر في التأمل الثالث، ويعاود الظهور في التأمل الخامس عندما يشرح ويفسر طبيعة الإله الروحية والفكرية، وثنائياته الشهيرة بين الفكر والامتداد والنفس والجسد تتكرر عبر كل التأملات، ومن ثَمَّ نستطيع تناول فلسفة ديكارت في كتاب التأملات بإقامة ترتيب وتنسيق بين كل هذه الموضوعات الجذرية على التأملات الستة، فنبدأ بالخطوة الأولى وهي الشك المنهجي، ثم نتناول تمييزه بين النفس والجسد والفكر والامتداد موضحين بذلك اليقين الأول، وهو إثبات وجود الذات المفكرة، ثم نتناول كل ما قاله عن الإله وإثبات وجوده وطبيعته.

- الشك المنهجي:

هذا الشك منهجي؛ لأن ديكارت لا يستخدمه إلا كوسيلة للوصول إلى يقين أول واضح بذاته، ولا يأخذ الشك موقفًا نهائيًّا له، يقول ديكارت: «يجب النظر إلى كل ما يمكن أن يوضع موضع الشك على أنه زائف». ولا يقصد ديكارت بذلك الحكم بزيف كل شيء، أو بزيف كل ما يوضع محل الشك، بل يقصد أنه لن يقبل بأي شيء على أنه حقيقي ما لم يخضع لامتحان الشك، الذي يستطيع به الوصول إلى شيء يقيني عن طريق برهان عقلي، وهو يذهب إلى أننا سوف نتمكن من التأكد من صحة ويقين أشياء كثيرة ومنها العلوم، بعد أن نمارس خطوة الشك، وليس ذلك إلا لأننا تمكنَّا من تأسيسها على أسس من اليقين والوضوح العقلي؛ ولذلك فهو عندما يضع موضع الشك كل العلوم بما فيها الرياضية والهندسية فليس ذلك إلا بغرض تأسيسها على أسس يقينية واضحة، والحقيقة أنه يقوم بذلك بالفعل ابتداءً من التأمل الرابع، حيث يثبت يقين العلم الطبيعي من منطلق أنه في العقل فكرة واضحة ومتمايزة ويقينية عن الامتداد الذي هو جوهر العالم الطبيعي، لكن يضع ديكارت أشياءً أخرى كثيرة محل الشك، وتسقط في هذا الاختبار،وبالتالي يستبعدها تمامًا؛ لأنها لم تصل إلى درجة اليقين والوضوح والتمايز الذي يبتغيه، ومن هذه الأشياء كل ما تعلَّمناه، سواء من الحواس أو من خلالها، أي: أنه يرفض كل ما تأتي به الحواس من إدراكات، ويرفض الإدراك الحسي نفسه كأداة معرفية، وهذا يتضمن كل شيء نعرفه عن

العالم الخارجي، وكذلك عن أنفسنا باعتبارنا أجسادًا، وهو يرفض شهادة الحواس؛ لأنها دائمًا ما تخطئ، ودائمًا ما تكون الحواس عرضة للأوهام أو الاعتقادات الخاطئة، ويذهب ديكارت في ذلك إلى أنه «من الحكمة ألا نثق في الذي خدعنا ولو لمرة واحدة». فإذا ثبت أن الحواس لم تكن محل ثقة في أحيان؛ فكيف لنا أن نثق بها في كل الأحيان؟! وهناك سبب آخر يقدمه ديكارت لعدم الثقة في الحواس، وهو أنه لو لم نكتشف أننا ننخدع بالحواس ونسلم بهذا؛ فما أدرانا أننا لا نحلم؟! ذلك لأن المرء في الحلم يشاهد أشياء كأنه يراها على الحقيقة في حين أنها ليست كذلك، وبالتالي فمن الممكن أن يكون كل ما نراه ونحس به حلم كبير، والحالم غالبًا ما لا يعلم أنه يحلم، وبالتالي فمن الممكن أن نكون في حلم ونحن لا نعلم ذلك.

ثم يأتي ديكارت بعد ذلك إلى تناول حقائق الحساب والهندسة، ويذهب إلى أننا يجب أن نُنَحِّيها جانبًا على الرغم مما هو فيها من وضوح وتمايز، حتى أن الحقيقة القائلة أن اثنين زائد ثلاثة تساوي خمسة، وأن المربع هو ما له أربع أضلاع ليست محمية من الشك، فمن الممكن أن يكون هناك شيطان ماكر هو الذي أوحى لي بهذه الأشياء، وأوهمني أنها حقائق، وهي ليست كذلك! وينتهي ديكارت إلى القول بأنه: «ليس هناك أي شيء كنت أعتقده في السابق أنه حقيقي لا يمكن أن أضعه موضع الشك، وذلك بناءً على أسباب قوية ومعتبرة». والحقيقة أن ديكارت الذي شكَّ في حقائق الحساب والهندسة في التأمل الأول على أساس افتراض الشيطان الماكر لن يعود إلى إثباتهما إلا في

التأمل الرابع؛ عندما يثبت أن الإله الرحيم العادل لن يتركه يخضع لسلطة هذا الشيطان، ولن يجعله ينخدع ويثق في أشياء باطلة، وذلك بعد أن يثبت وجود الإله في التأمل الثالث.

- اليقين الأول: إثبات وجود الذات:

هذا هو موضوع التأمل الثاني، وفيه يبدأ ديكارت من النقطة التي انتهى عندها في التأمل الأول، قائلًا: «سأستمر بتنحية كل ما فيه قليل من الشك.. حتى أصل إلى شيء يقيني». يذهب ديكارت إلى أنه حتى ولو كان افتراض وجود شيطان ماكر صحيحًا، وحتى لو كان هذا الشيطان الماكر يخدعه بأن يصور له وجود عالم لا وجود له، فإن هذا الشيطان الماكر لا يمكن أن يخدعه في وجوده ذاته، فلا يمكن أن يصور له أنه موجود في حين أنه ليس موجودًا؛ وبذلك يتوصل ديكارت إلى أول يقين وهو وجود الذات، ويقول: إنه يشعر بوجوده وبهويته، وبالتالي فهو موجود، ويستخدم ديكارت حجة شبيهة في «مبادئ الفلسفة»؛ إذ يقول: «لا يمكننا الشك في وجودنا أثناء عملية الشك»، ذلك لأن الكائن الذي يشك يجب أن يكون موجودًا في البداية، «ذلك لأن من التناقض الاعتقاد في أن الذي يفكر لا يوجد أثناء التفكير». فالتفكير في حد ذاته دليل على وجود الذات التي تفكر، «هذا الاستنتاج القائل (أنا أفكر، إذن أنا موجود) هو أول شيء يقيني على الإطلاق».

والحقيقة أن ديكارت ينطلق إلى تأكيد هذه النتيجة على أساس العلاقة التقليدية بين الجوهر والأحوال، أو الموضوع والمحمول، فحسب هذه العلاقة التقليدية لا يمكن أن تكون هناك أحوال دون جوهر تحمل عليه، ولا يمكن أن يكون هناك محمول، بالمعنى المنطقي بدون موضوع، ولا يمكن أن يكون هناك فعل دون قائم بهذا الفعل، والتفكير فعل يجب أن يكون له فاعل، أو محل يحدث فيه، أو شيء يقوم به وهو الذات المفكرة، وهكذا نرى أن الثورة الفلسفية التي أتى بها ديكارت تكمُن خلفها بعض الاتجاهات التقليدية القديمة في الفلسفة. هذا بالإضافة إلى أن الانطلاق من الفكر إلى الوجود، أي: من واقعة حضور شيء ما في الفكر إلى القطع بوجوده الواقعي، مثلما سيفعل ديكارت مع فكرة الإله الكامل، هو أيضًا اعتقاد فلسفي تقليدي موغل في القدم يصل إلى فلاسفة ما قبل سقراط، وعلى رأسهم بارمنيدس.

ويتساءل ديكارت بعد ذلك عن طبيعة وجود هذه الذات التي اكتشف وجودها اليقيني والواضح، ويذهب إلى أنه يدرك نفسه باعتباره جسمًا، أي: ممتلكًا لإحساسات معينة ورغبات ومشاعر، وعلى الرغم من أنه يمكن الشك في الأشياء الحسية؛ إذ يمكن أن تكون مجرد أوهام، إلا أنه لا يمكن الشك في أن المرء حاصل على وعي بالإحساسات، وهذا الوعي في حد ذاته موجود وحاضر ولا يمكن أن يكون وهمًا. ويتوصل ديكارت من ذلك إلى أن الوعي بالجسد نفسه يأتي من الفكر؛ ذلك لأن الإحساس والرغبة والمشاعر كلها عناصر فكرية يدركها المرء بفهمه وعقله، وينتهي ديكارت إلى القول بأن الذات توجد باعتبارها شيئًا

مفكرًا،أي: فكر خالص يعد هو نفسه أساس الوعي بالحالات الجسدية، لكن يقف ديكارت طويلًا على مفهوم آخر مرتبط بالجسد، وبكل الأشياء الجسمية، ويتساءل: هل أمتلك وعيًا بذاتي بفضل امتلاكي لجسد ممتد، أي: ذي أبعاد تشغل حيزًا من الفراغ! ويجيب بالنفي؛ ذلك لأن إدراك الشيء الممتد، بما فيه الجسم الإنساني لا يعتمد على الحواس بل على الفكر، ويضرب مثالًا على ذلك بقطعة من الشمع، فهذه القطعة لها شكل معين ولون وملمس، وعندما تتعرض للحرارة تذوب ويتغير شكلها وملمسها ولونها، وليس معنى هذا أنها اختفت أو كفَّت عن الوجود، بل يظل الفكر يعرف أنها باقية، وذلك من كونها لا تزال شيئًا ممتدًا، ومعنى هذا أنه لا الشكل أو اللون أو الملمس قادر على إبقاء هوية شيء ثابتة في الفكر، والامتداد وحده هو القادر على ذلك، هذا الامتداد ليس شيئًا تتلقاه الحواس مثل اللون والملمس والرائحة، بل هو شيء يدرك بالفكر وحده، ومعنى هذا أن الفكر لا يدرك ماهية المادة من الإحساسات التي يتلقاها منها، بل من فكرة الامتداد التي يدركها الفكر مباشرة على أنها ماهية كل ما هو جسمي بما فيه الجسم الإنساني.

- التمييز بين الفكر والامتداد، وبين النفس والجسم:

على أساس نظريته في الأفكار الواضحة والمتمايزة، يذهب ديكارت إلى أن ما يدركه العقل بوضوح وتمايز يتمتع بحقيقة وواقعًا موضوعيًّا يفوق ما يدركه العقل غامضًا ومختلطًا، وعندما يبحث في أفكاره عن المادة والأجسام المادية يدرك أن أفكاره عنها ليست واضحة؛ ذلك لأن

مصدر هذه الأفكار الحواس والإدراك الحسي وهي غالبًا ما تخطئ في المعرفة وتتعرض للزيف والأوهام، ونظرًا لأن ديكارت يشك في قدرة الإدراك الحسي على إمداده بمعرفة واضحة يقينية، فهو أيضًا يشكُّ في إمكان الحصول على أفكار واضحة عن موضوعات هذا الإدراك الحسي، مثل المادة والجسد، فموضوعات الإدراك الحسي دائمًا ما تكون مختلفة بطبيعتها، فهي دائمة التغير والتحول، مثل: مثال قطعة الشمع الذي يستخدمه. وينتهي ديكارت إلى القول بأن معرفة الفكر أيسر وأوضح من معرفة المادة، ومعرفة النفس أيسر وأوضح من معرفة الجسد؛ ذلك لأنه من اليسير على الإنسان ملاحظة ما يدور في عقله من عمليات فكرية، فالفكر هو النشاط الأساسي للإنسان، وما الجسد سوى ملحق بالعقل والفكر، كما أن الجسد نفسه يعرف بوضوح ويقين عن طريق الفكر ذاته، أما إذا استعملنا الجسد لمعرفة الجسد فسوف نخطئ ونقع في الأوهام، مثل: استخدامنا للإدراك الحسي لمعرفة أجسادنا، كل ما نعرفه عن الجسد هو آثاره العقلية، أي: ما يثار في العقل من إحساسات وانفعالات، وبالتالي فالعقل هو الذي يعرف الجسد، ومن هنا فإنه له الأولوية على الجسد.

ويؤسس ديكارت تمييزه بين النفس والجسد على أساس نظريته القائلة أن ما يدركه العقل متمايزًا أو منفصلًا عن الآخر يوجد على الحقيقة متمايزًا ومنفصلًا، وهو يستطيع أن يفكر في النفس في استقلال عن الجسد، وبالتالي فهما في الحقيقة منفصلان.

كما يذهب ديكارت إلى أن في الوجود جوهرين منفصلين ومتمايزين هما الفكر والامتداد، والفكر هو جوهر النفس، والامتداد جوهر الجسد، وعلى هذا الأساس يكونا منفصلين نظرًا لانفصال وتمايز جوهري الفكر والامتداد، لكن الإنسان في النهاية يمثل اتحادًا بين النفس والجسد، وفي نفس الوقت فهذا الاتحاد تظهر فيه النفس والجسد متمايزان ومنفصلان، والدليل على ذلك ما يدركه الإنسان بوضوح عن انفصالهما، ولا يميل ديكارت إلى الرأي القائل: إن الاتحاد بين النفس والجسد يصنع موجودًا جديدًا هو الإنسان نفسه، بل يصرُّ على أن هذا الاتحاد ما هو إلا تلازم جوهرين من طبيعتين مختلفتين تمامًا. ويثبت ديكارت رأيه هذا على أساس معادلة حسابية بسيطة وهي ١ + ١ = ٢ فالنفس زائد الجسد يساويان اثنين نفسًا وجسدًا، ولا يصرح ديكارت بهذه المعادلة الحسابية، بل هي متضمنة في تحليلاته. كان يمكن لديكارت أن يلجأ إلى معادلة حسابية أخرى وهي ١ × ١ = ١، بمعنى: أنه كان يمكنه النظر إلى اتحاد النفس والجسد على أنهما عملية ضرب لا عملية إضافة، لو قام ديكارت بهذه المعادلة لأدرك أن اتحاد النفس بالجسد سوف يصنع موجودًا مختلفًا عنهما، لا هو بنفس فقط ولا هو بجسد فقط، بل هو كائن جديد ليس في العالم مثله وهو الكائن الإنساني، وكان يمكنه أيضًا أن ينظر إلى اتحاد النفس والجسد على أنه شبيه بامتزاج العناصر الكيميائية لصنع عنصر جديد، لكنه لم يستطع أن يجري تلك المعادلة أو هذا التشبيه؛ لأنه يعتقد منذ البداية بتمايز واختلاف الفكر والامتداد، وأنهما لا يمكن أن يمتزجا

لصنع وجود جديد هو الوجود الإنساني، ومن أجل ذلك اعتقد ديكارت أن اتحاد هذين الجوهرين المختلفين أشد الاختلاف في الكائن الإنساني ليس إلا فعلًا للإرادة الإلهية، ونتيجة لقرار إلهي بأن يوجد الإنسان الذي هو فكر ونفس في الأساس في جسد معين في هذا العالم.

وعلى عكس كثير من الفلاسفة المحدثين، فإن ديكارت لا ينتهي باختزال الجسم إلى العقل، أو العقل إلى الجسم، بل يؤكد على أن لدينا عقلًا وجسمًا في نفس الوقت، وأن الاثنين مختلفان عن بعضهما تمامًا، لكنهما في نفس الوقت في اتحاد تام، ويذهب ديكارت إلى أن هذا الاتحاد ليس تشاركًا بين متساويين؛ ذلك لأنه كما يصر على حقيقة الجسم ولا يختزله إلى العقل، فإنه كذلك يقطع بأن الجسم هو مجرد شيء امتلكه، في حين أن العقل أو النفس هو شيء أكونه، أي: هو ما يشكل هويته الحقيقية، بمعنى: أنني عقل أو نفس في الأساس وبالدرجة الأولى، ولهذا العقل أو لهذه النفس جسد تمتلكه، والحقيقة أن ديكارت يقع في تناقض خطير في نظريته حول ثنائية العقل والجسد، فحسب منطق تفكيره الذي يعتمد على النظرية التقليدية في العلاقة بين الجوهر والأحوال، والموضوع والمحمول، والتي يقول بحسبها: إن التفكير نشاط أو فعل في حاجة إلى فاعل أو جوهر يقوم به وهو النفس، فإن رأيه هذا غير مبرر ومتناقض؛ ذلك لأنه من الممكن القول بأن التفكير فعل ذهني لفاعل أو حامل مادي هو الجسم، وأن العقل أو النفس ذاتها ما هي إلا صفة أو حال للجسم، كل ما فعله ديكارت أنه ألحق النشاط الفكري بجوهر مفكر هو النفس، في حين أنه كان من

الممكن أن يلحقه بالجسم دون أي تناقض، فمن المفترض أن يكون الجوهر والقوام مادي، ويكون الحال أو الفعل فكري، أو روحي، والحقيقة أن سبينوزا سوف يفضل هذا الخيار، وهو إلحاق الفكر بالجسم وليس العكس كما ذهب ديكارت.

ويبني ديكارت افتراضه بأولوية النفس على الجسم على افتراض أن الشيء المفكر يجب أن يكون حائزًا على جوهر مفكر وهو العقل، أو النفس، وأن الشيء الممتد يجب أن يرجع إلى جوهر مادي، فالفكر في حاجة إلى عقل كي يقوم به، والامتداد في حاجة إلى جسم مادي كي يقوم به، وهذه هي الثنائية الديكارتية الشهيرة في أعلى صورها. لم يكن ديكارت ليتصور إمكان وجود نشاط فكري في جوهر مادي، أو وجود صفة الامتداد في جوهر روحي أو عقلي خالص، وقد كانت هذه الاعتقادات المسبقة هي الميدان الأفلاطوني الذي استمر متخفيًا في فلسفة ديكارت، ومن هنا لا تكون فلسفته ثورية تمامًا كما اعتقد الكثيرون بل تقليدية للغاية، حتى وإن كانت التصورات الفلسفية التقليدية غير واضحة في مذهبه للوهلة الأولى، وكدليل على أن في فلسفة ديكارت عناصر فلسفية تقليدية أن معظم الفلسفات الحديثة التالية له سوف تنقد هذه العناصر التقليدية وترفضها، وأهمها فلسفة سبينوزا التي سوف تنظر إلى الفكر الامتداد على أنهما صفتان لجوهر واحد، وإلى النفس والجسم على أنهما شيء واحد ولا يمكن تصور أحدهما بدون الآخر، وجون لوك الذي سوف يرفض أولوية الفكر على الامتداد وينقد نظرية ديكارت في الأفكار الفطرية، وديفيد هيوم

وإمانويل كانط اللذان سوف يرفضان استنتاج الوجود من الفكر وحده، لكن هذا الاستنتاج هو الذي تمسَّك به ديكارت في كل مؤلفاته وأصرَّ عليه، وأقام عليه تمييزه بين الفكر والامتداد، والنفس والجسم، من منطلق أن ما يمكن التفكير فيه بمعزل عن الآخر هو في حقيقته متمايز ومختلف عن الآخر، والفكر يمكن التفكير فيه بمعزل عن الامتداد، ويمكن التفكير في النفس بمعزل عن الجسم، وبالتالي فهما متمايزان على الحقيقة، ويقول في ذلك: «يكفي أن أكون قادرًا على إدراك شيء ما بمعزل عن الآخر؛ كي أكون على يقين أن الواحد منهما مختلف عن الآخر». إن ديكارت بذلك يعتقد أنه إذا كان من الممكن التفكير في جوهرين منفصلين ومتمايزين هما الفكر والامتداد، فإن هذا يكفي لاعتبارهما منفصلين في الواقع، هذا الأسلوب في التفكير الذي يتوصل إلى الوجود الحقيقي من خلال الفكر وحده هو ما ثارعليه لوك وهيوم وكانط، أيضًا معظم الفلاسفة المحدثين قد بنوْا فلسفاتهم عن طريق معارضته ونقد أفكاره الأساسية لا عن طريق السير وراءها أو توسيعها أو تطويرها، ناهيك عن الفلاسفة المعاصرين الذين أعطوا الأولوية للجسم والامتداد على النفس والفكر، لقد انبنت الفلسفات الحديثة والمعاصرة على أساس اختلافها مع ديكارت لا اتفاقها معه، ومثَّلت ابتعادًا مستمرًا عنه لا اتباعًا له.

لقد كان استخلاص الوجود من الفكر، والاعتقاد في وجود جوهرين متمايزين هما: الفكر والامتداد، وأن الذات الإنسانية توجد على أنها فكر، وأن الجسم ما هو إلا زائد أو ملحقًا بالعقل، كل هذه الأشياء كانت

مُسلَّمات في فلسفة ديكارت ورثها من فلسفة العصور الوسطى دون وعي منه، ودون أن يضعها موضع الفحص، ولم يشك فيها أبدًا أو يطبق عليها منهجه الشكي؛ ذلك لأنها كانت ضمنية أقامها واستخدمها في فلسفته دون وعي منه. إن ديكارت الذي بدأ تأمله الأول بالشك المنهجي وبرفض الاعتقادات والآراء السابقة لم يرفض في الحقيقة كل تلك المسلمات السائدة في فلسفات العصور الوسطى؛ إذ ظهرت لديه بقوة ووضوح.

لكن إذا كان ديكارت قد فصل بين النفس والجسم هذا الانفصال التام والنهائي؛ فكيف نظر إلى إشكالية اتصالهما واتحادهما في الفرد الإنساني؟! إن هذا الفصل يجعل من تفسير اتصالهما في الإنسان مشكلة عويصة واجهت ديكارت، وحاول أن يبحث لها عن حلول. وقد قدم ديكارت عددًا من الحلول لهذه المشكلة، مشكلة اتصال النفس بالجسم، وذهب إلى أن الجسم ما هو إلا آلة Machine تحركها النفس؛ فالجسم شيء مادي مثله مثل باقي الأشياء المادية الموجودة في العالم، وقوانينه الحاكمة له هي نفس القوانين الحاكمة لكل الأجسام المادية، لكنه في نفس الوقت جسم خاص لنفس معينة، هذه الآلة التي هي الجسم الإنساني لا تستطيع أن تعمل بدون النفس، وتتوقف عن العمل إذا فارقتها النفس، ويذهب ديكارت إلى أنه على الرغم من تمايز النفس والجسم، إلا أن الوجود الإنساني في العالم يتمثل في اتحاد النفس بالجسم؛ ذلك لأن الله أراد من الإنسان في هذا العالم أن يكون نفسًا وجسمًا في نفس الوقت، فليس في اتحاد النفس والجسم أي صدفة أو

عرض؛ ذلك لأن هذه هي إرادة الله التي صنعت هذا الاتحاد، ولم يؤدِّ هذا الحل إلى حل إشكالية اتصال النفس بالجسم؛ ذلك لأن الثنائية التي وضعها ديكارت بينهما كانت قوية، وعادت مشكلة اتصالهما إلى الإلحاح عليه، فكيف يمكن للنفس التي هي فكر خالص أن تتحد في الجسم الذي هو مادي خالص؟! وكيف تحرك النفس الجسم وتحدث فيه أفعالًا وحالات، وكيف تؤدي الأحداث الجسمية إلى حدوث أفكار في العقل؟! وكل هذه المشكلات أتى ديكارت بافتراض لحلها وهو قوله بوجود شيء في الجسم يمثل اتحاد النفس بالجسم، ويتصف بالصفة العقلية والصفة الجسمية في نفس الوقت، وهو الغدة الصنوبرية التي تقع وراء المخ، فعن طريق هذه الغدة يرسل العقل إشارات عصبية إلى الجسم؛ كي يتحرك ويفعل، وعن طريقها أيضًا يستقبل العقل أحداثَ وإحساساتِ الجسم لنقلها إلى العقل، وعلى الرغم من هذا الحل الجديد الذي يبدو عليه البراعة والذكاء إلا أنه لم يحل إشكالية اتصال النفس بالجسم؛ ذلك لأن ديكارت كان قد وصف الجسم بأنه آلة، والآلة لا تحركها إلا آلة مثلها، والغدة الصنوبرية ليست آلة بل هي جزء من الجسم، وكأن ديكارت يقول بأن جزءًا من الجسم يحرك الجسم كله، ويظل دور النفس غائبًا؛ لأن هذه الغدة ليست جزءًا من النفس بل هي وظيفة من وظائف الجسم، وهكذا لم يستطع ديكارت حل إشكالية الاتصال وظلَّت ثنائية النفس والجسم لديه قائمة على الرغم مما يبدو عليه افتراض الغدة الصنوبرية من تجديد، وعلى الرغم

من أن هذا الافتراض سوف يلقي أصداء لدى علم النفس التجريبي الحديث الذي سوف يحل نفس المشكلة بتبنِّي الافتراض الديكارتي.

- وجود الإله وطبيعته :

يعتقد ديكارت أن الإله يشبه العقل من حيث إن الإله والعقل يفكران، ولكن ليس لهما وجود مادي أو جسمي، إلا أن الإله يختلف عن العقل بأنه غير محدود، وأنه لا يعتمد في وجوده على خالق آخر، ويقول:"إنني أدرك بجلاء ووضوح وجود إله قدير وخير لدرجة لا حدود لها".

- مبررات ديكارت لإثبات وجود الإله:

ينتقل ديكارت في التأمل الثالث إلى تناول وجود الإله وطبيعته، ويثبت وجوده بدليلين، وفي التأمل الخامس يستخدم دليلًا ثالثًا، وجدير بالذكر أن الذي جعل ديكارت ينتقل من إثبات وجود الذات المفكرة إلى البحث عن يقين آخر وهو الإله، ويشرع في إثبات وجوده هو أنه استمر في ممارسة شكه؛ ذلك لأنه رأى أن مجرد إثبات وجود الذات لا يكفي كي يصل إلى يقين مطلق حول باقي أفكاره وحول العالم، حتى إنه لا يزال يشك في التأمل الثالث في الحقائق الحسابية والرياضية، ويفترض أن هناك من يخدعه حولها، وأن هذا المخادع هو الذي جعله يعتقد في صدقها، في حين أنها ليست كذلك، ويتناول ديكارت يقينه الأول الذي وصل إليه وهو وجود الذات، ويذهب إلى أن هذا الوجود لا يكفي في حد ذاته لإثبات حقائق العالم المختلفة، حتى إنه يفترض أن الذات تحصل على يقينها من خلال نور فطري في النفس الإنسانية لا يرجع إلى

العالم الخارجي، لكنه يعود ليشك في هذا النور الفطري ذاته؛ لأنه لا يذكر عنه سوى ما تلقاه من حقائق في العالم الخارجي، وبذلك يكون النور الفطري مجرد عامل مساعد يظل معتمدًا على ما تتلقاه الذات من العالم الخارجي، وهذا الاعتماد للنور الفطري على أشياء العالم لا يجعله عند ديكارت يقينًا مستقلًّا بالذات، بل يمكن أن يكون هو نفسه عرضة للشك؛ لأن النور الفطري يقتصر دوره على ما تتلقاه الذات من العالم، وبذلك فهو ليس فاعلًا بل منفعلًا، ليس إيجابيًّا بل سلبي، والنور الفطري ليس سوى تأكيد الذات على حقائق العالم بناءً على وضوح وتميز أفكارنا عنه، هذا الوضوح والتمييز في حد ذاته عرضة للشك؛ لأنه يمكن أن ينتهي في النهاية إلى مجرد خداع، أو إلى شيطان ديكارت، الذي لا يكف عن افتراض وجوده دائمًا في مؤلفاته، وفي مواجهة عدم كفاية اليقين الأول وهو وجود الذات، وبسبب أن هذه الذات يمكن أن تكون منخدعة، يشرع ديكارت في البحث عن أساس ثانٍ لليقين يستطيع به تأسيس يقينه بحقائق العالم، وعندما يبحث في فكره عن أفكار يدركها في وضوح وتميز يجد أنه يستطيع التفكير في إله كامل، فبعد أن ينحي العالم كله ويستبعده من تفكيره هو والأفكار المتعلقة به، وما يؤكده من نور فطري الذي هو في حد ذاته محل للشك، يتناول الفكرة الثانية التي تطغى على تفكيره بعد فكرة الذات المفكرة مباشرة وهي فكرة الإله، ويجعل ديكارت فكرة الإله هي الفكرة الوحيدة القادرة على تخليصه من شكه؛ لأنه بدون هذا الإله لن يستطيع أن يكون على يقين من أي شيء، ولن يستطيع أن يتخلص من فكرة الشيطان الماكر الذي يخدعه

دائمًا، ويقول في ذلك: «يجب أن أبحث فيما إذا كان هناك إله بمجرد ما أن تأتي الفرصة لذلك، وإذا اكتشف أن هناك إلهًا، يجب عليَّ أيضًا أن أبحث فيما إذا كان مخادعًا»؛ ذلك لأن الإله إذا كان مخادعًا فلن يكون هو الإله الحقيقي، بل سيصبح الشيطان الماكر بعينه، «ذلك لأنه بدون معرفة بهاتين الحقيقتين، أي: وجود الإله، وأنه ليس مخادعًا، فلا يمكن أن أصبح على يقين من أي شيء»، عدا كونه وجودًا مفكرًا وحسب.

- أدلة وجود الإله:

الملاحظ أن ديكارت يتوصل إلى وجود الذات المفكرة لا بأدلة وبراهين عقلية مثل التي يستخدمها في إثبات وجود الإله، بل بالحدس والبصيرة؛ ذلك لأن السلسلة التي ينتقل فيها من الشك إلى اليقين بوجوده باعتباره كائنًا مفكرًا، والتي يقول فيها: «أنا أشك إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود» ليست ببرهان عقلي، بل هي في حقيقتها برهان حدسي، يقوم على البصيرة والنور الفطري، وعندما يأتي ديكارت لتناول فكرة الإله كفكرة في الذهن وحسب، وكي يوضح أنه ليس مجرد فكرة، وأنه يتمتع بوجود حقيقي يشرع في تقديم أدلة عقلية وبراهين منطقية على وجوده، ومعنى هذا أن ديكارت يقدم أدلة وبراهين على ما توصل إليه عن طريق حدس باطني وبصيرة داخلية؛ ذلك لأنه يبحث في ذاته عن فكرة أخرى غير فكرة الذات المفكرة ويجد فكرة الإله، وهذا هو طريق الحدس، الذي يثبته بعد ذلك عقليًّا في صورة أدلة. إن كثيرًا ممن يعرض لفلسفة ديكارت ينتقل مباشرة من إثباته لوجود الذات المفكرة إلى أدلته

على وجود الإله، متناسيًا الكيفية التي ظهرت بها فكرة الإله لديه؛ فهو لم يتوصل إلى هذه الفكرة بأدلة عقلية بل بحدس باطني وبصيرة داخلية، وهذه هي النقطة التي لم يركز عليها أغلب من تناولوا فلسفته من مؤرخي الفلسفة، فكرة الإله ذاتها يعرفها ديكارت بحدس وبصيرة داخلية، أما وجوده فيعرفه أو يثبته بأدلة وبراهين عقلية، وكونه يعرف فكرة الإله بحدس باطني يجعل فلسفته مشابهةً لفلسفة القديس أوغسطين التي تعتمد على نفس الوسيلة، وهي الحدس والبصيرة الداخلية لاكتشاف فكرة الإله داخل النفس، ومرة أخرى نرى كيف أن فلسفة ديكارت ليست جديدة تمامًا، بل تنطوي على عناصر تقليدية سبق ظهورها في فلسفات العصور الوسطى.

- الدليل الأول:

وهو دليل الكمال، يميز ديكارت بين نوعين من الوجود: الوجود الموضوعي والوجود الفعلي أو الواقعي، الوجود الفعلي هو وجود الأشياء المحسوسة الحاضرة أمامنا في هذا العالم، أما النوع الآخر من الوجود فهو الوجود الذي يتمتع بصفات الكمال، يمكنني أن أفكر في الحصان الطائر مثلًا، على الرغم من أنه غير موجود، ويمكنني أيضًا أن أفكر في المائدة الحاضرة أمامي وأدرك أنها موجودة، وأفكر كذلك في إله كامل، ومن بين هذه الأفكار نرى أن فكرة الحصان الطائر موجودة في ذهني فقط وليس لها وجود فعلي، والمائدة موجودة أمامي وهي بذلك تتصف بالوجود الفعلي إلى جانب كونها فكرة حاضرة في ذهني، وعلى الرغم من أن الإله غير حاضر أمامي إلا أن وجوده موضوعي؛

ذلك لأن ما يتصف بصفات الكمال يتمتع بوجود أكثر موضوعية من الأشياء الموجودة بالفعل؛ لأنها في النهاية ناقصة ومصنوعة، وفكرة الخالق أكثر موضوعية من فكرة المخلوق حتى ولو لم يكن هذا الخالق حاضر فعليًّا أمام الحواس، وفي ذلك يقول ديكارت: «إن إلهًا أعلى – أبدي – لا متناهي – كلي العلم والقدرة، وخالق لكل شيء خارجًا عنه حاصل على حقيقة موضوعية في ذاته أكثر من تلك العناصر المتناهية». ويبني ديكارت استدلاله هنا على أساس أن الخالق أكثر حقيقة من المخلوق، والكامل أكثر حقيقة من الناقص، والكلي العلم والقدرة أكثر حقيقة من ناقص العلم والقدرة، واللا متناهي أكثر حقيقة من المتناهي، ويذهب ديكارت إلى أن كل تلك الصفات التي نعرفها عن الإله يجب أن تكون لها أسباب لوجودها، ولا يكون الإنسان هو مخترعها؛ ذلك لأن الإنسان ناقص؛ وبذلك لا يمكن أن يكون هو سبب فكرة الكمال، كما أن كل تلك الصفات يجب أن ترجع إلى علة كافية وضرورية وهي الإله نفسه الموجود وجودًا فعليًّا، فمن صفات الكمال الوجود، وإذا لم تكن فكرة الكمال ترجع إلى كائن موجود بالفعل فسوف تصبح فكرة ناقصة وهذا تناقض؛ وبالتالي فالكائن الكامل يجب أن يكون موجودًا، لأنه لو افتقر إلى الوجود لأصبح غير كامل، ولكان مجرد فكرة في الذهن.

-الدليل الثاني:

وفيه يثبت ديكارت وجود الإله انطلاقًا من وجوده هو، بمعنى: أنه ليس سببًا لوجود نفسه، وبالتالي يجب أن يكون هناك كائن خالق هو الذي أوجده. يقول ديكارت: «وأسأل نفسي، من أين أحصل على وجودي؟! ربما من ذاتي أو من والديَّ، أو من أي مصدر آخر أقل كمالًا من الإله!». ولا يمكن أن يكون سببَ وجوده شيءٌ ناقصٌ أو مفتقر إلى الكمال، وبالتالي فالإله الكامل هو سبب وجوده، وبما أنه موجود فالإله أيضًا موجود. وهو يفترض جدلًا أن يكون والداه هما السبب في وجوده، إذ يمكن أن يكونا سببًا في ميلاده كجسم وحسب، في حين أنه يوجد في الحقيقة باعتباره فكرًا منفصلًا ومتمايزًا عن الجسد. فالوالدان يمكن أن يكونا سببًا لوجود هذا الجسم المادي، لكنهما لا يمكن أن يكونا السبب في النفس أو الروح، ويناقش ديكارت احتمال أن يكون السبب في وجوده شيء أكثر كمالًا من الوالدين، لكن أقل كمالًا من الإله مثل الطبيعة مثلًا، ويرفض ديكارت هذا الاحتمال؛ ذلك لأن الأقل كمالًا من الإله لا يمكن أن تكون لديه القدرة على الخلق من العدم، ويستمر ديكارت في المزيد من توضيح هذا الدليل، ويذهب إلى أنه باعتباره جوهرًا مفكرًا موجود، لكنه لم يكن يوجد دائمًا بل إن وجوده حادث، أي: حدث بعد أن لم يكن، وعندما يبدأ شيء في الوجود بعد أن لم يكن.. فمعنى هذا: أنه أتى من العدم، أي: خُلق، والقدرة على إيجاد شيء من العدم تتطلب قدرة تفوق قدرة إدراك الأشياء، وبما أن الإنسان لا يحصل إلا على قدرة على إدراك الأشياء وفهمها وحسب، وليس

حائزًا على قدرة إيجادها، أو خلقها من العدم، فهذا يعني أن الإنسان لا يمكن أن يكون سببًا في وجوده، وبالتالي فهذا السبب يكون أكثر قدرة من الإنسان، وإذا كان الإنسان قادرًا على إيجاد نفسه من العدم؛ فمعنى هذا: أنه قادر على الحصول على الكمال، لكن الإنسان ناقص، وبالتالي، فهو لا يمكن أن يكون سببًا في وجود ذاته، ولا يمكن أن يكون سبب الوجود إلا الإله الكامل.

ويقدم ديكارت حجة أخرى في إطار هذا الدليل، ويذهب إلى أن الوجود عبارة عن المرور عبر لحظات الزمن، وهذا المرور عبر الزمن يفترض القدرة على جعل الشيء الموجود في لحظة يستمر في الوجود في كل لحظات الزمن، وبما أن الإنسان ليس قادرًا على إيجاد أي شيء يستمر حاضرًا في كل الأزمنة، فلا يمكن أن يكون هو السبب في استمرار وجوده في الزمن؛ وبذلك فيجب أن تكون هناك قدرة على استمرار الإيجاد في الزمان، وهذه القدرة غير متوافرة في الإنسان، وبالتالي فالإله هو هذه القدرة التي تجعل وجودي، ووجود الأشياء كلها مستمرة في الزمان، والملاحظ أن هذه الحجة هي في حقيقتها ليست حجة لإثبات وجود الله وحسب بل حجة على استمرار خلقه واستمرار العناية الإلهية، فديكارت يعتقد في أن الإله لم يخلق الإنسان والعالم في لحظة من الزمان ثم انتهى عمله عند ذلك، بل كان يعتقد في نظرية الخلق المستمر والعناية الإلهية تلك النظرية المستمدة من فلسفات العصور الوسطى.

- الدليل الثالث:

ويسمى هذا الدليل بالدليل الأنطولوجي، وذلك لسببين؛ الأول: أنه يستخلص وجود الإله من فكرة الكائن الكامل، والثاني أنه يُوحِّد الفكر والوجود في حالة الإله، ويعتبر أن الإله باعتباره فكرة مساويًا للإله باعتباره وجودًا حقيقيًّا، ويحتوي هذا الدليل على مُسلَّمة منطقية تذهب إلى أن ما هو ممكن ومقبول منطقيًّا يمكن وجوده واقعيًّا، بمعنى: أننا إذا كنا نستطيع تصور أن المفهوم (أ) ينطوي على المفهوم (ب)، فمعنى هذا أن الشيء المسمى (أ) ينطوي على الشيء المسمى (ب)، فالعلاقة المنطقية التي تدرك بيقين وتميز في الفكر يمكن وجودها واقعيًّا خارج الفكر، ويسير الدليل الثالث بنفس الطريقة؛ إذ يذهب ديكارت إلى أن لديه فكرة واضحة ومتميزة عن الكائن الكامل، وهذا الكائن لا يمكن أن يفتقر إلى أي صفة بما فيها صفة الوجود، ومن التناقض تصور فكرة الإله باعتباره الكائن الكامل دون تصور وجوده؛ ذلك لأن الكائن الكامل غير الموجود حقيقة يعد تناقضًا ونقصًا في فكرة الكمال ذاتها؛ وبالتالي فإن الوجود جزء من مفهوم الإله، إذن الإله موجود.

- العالم وأشياؤه:

لم يثبت ديكارت حتى التأمل الخامس سوى وجود الذات والإله، وميَّز بين النفس والجسد، أما في التأملين الخامس والسادس فينطلق إلى إثبات وجود العالم وحقيقة أشيائه، وأول ما يتناوله ديكارت في هذا الشأن ليس وجود المادة في حد ذاتها أو الأجسام المادية أو العالم في

كليته بل حقائق الحساب والهندسة، ويذهب إلى التمييز بين معرفة العالم باعتباره مادة ومُكوَّنًا من أشياء مادية، والمعرفة الرياضية، ويقرُّ بأن المعرفة الرياضية تتمتع ببداهة وصدق داخلي، والضمان الوحيد لهذا الصدق الداخلي هو أن الإنسان قادر على الحكم في المسائل الرياضية بيقينٍ، وهذه القدرة على الحكم الصحيح ليست زيفًا أو خداعًا؛ لأن الإله الذي خلق الإنسان هو الذي وضع فيه القدرة على الحكم الصحيح، ولأنه ليس مخادعًا فهو الذي يضمن وصول الإنسان إلى اليقين في الرياضيات؛ طالما استخدم مَلَكة الحكم لديه على نحو صحيح، والحقائق الرياضية من حساب وهندسة يتوصل إليها العقل وحده دون الاعتماد على الحواس، ودون أن يلاحظ الأشياء ويستقرأها ويستخلص منها القوانين الرياضية، وحقائق الرياضيات مستقلة عن العالم المادي، ولا يهم ما إذا كانت هناك أشياء مادية تتحقق فيها القوانين الرياضية أو لم تكن، فهذه الحقائق موجودة وموضوعة على مستوى الفكر، وليست في حاجة إلى العالم المادي كي تتحقق، وهي موجودة قَبْليًّا، وما على العقل إلا اكتشافها، وهو يكتشفها بنفسه بدون الاستعانة بالإدراك الحسي، ولا ينشغل ديكارت فيما إذا كانت الرياضيات هي التعبير الحقيقى عن جوهر الطبيعة وماهيتها، بعكس ما سيفعل من بعده سبينوزا ونيوتن والعلم الحديث كله، فالطبيعة عنده مادة في الأساس، وهي في ذلك مختلفة من حيث طبيعتها وجوهرها عن الرياضيات التي هي فكر خالص، فالرياضيات عنده تتمتع بالصحة واليقين، سواء كان هناك عالم أم لا. وكأن ديكارت بذلك يعتقد في

وجود عالم قائم بذاته للرياضيات مثل عالم الماهيات والمثل عند أفلاطون، والحقيقة أن في فلسفة ديكارت الكثيرَ من العناصر الأفلاطونية في صور مُسلَّمات ضمنية لم يكن على وعي بها، فالتمييز بين النفس والجسم وبين الفكر والامتداد، أو المعقول والمحسوس، كلها تمييزات ترجع إلى أفلاطون الذي يعد أول من أدخلها في التفكير الفلسفي.

أما عن طبيعة الأشياء المادية.. فيذهب ديكارت إلى التمييز فيما بين ما يدركه العقل منها وما تدركه الحواس؛ فالعقل يدرك الصفات الأولية للأشياء، مثل: الامتداد، والشكل، والعدد، والحواس تدرك الصفات الثانوية، مثل: اللون، والطعم، والرائحة، والملمس. ويذهب ديكارت إلى أنه طالما يدرك العقل الصفات الأولية في الأشياء بوضوح وتميز؛ فمعنى هذا: أن هذه الصفات موجودة بالفعل في المادة وهي ما تُشكِّل ماهيتها، أما الصفات الثانوية فليست في المادة نفسها، بل هي ناتجة عن تأثر الحواس بالمادة؛ ذلك لأن لون الشيء ورائحته وملمسه يمكن أن يتغير مع بقاء هذا الشيء على حاله من حيث الامتداد والعدد، وبالتالي تكون الصفات الثانوية غير داخلة باعتبارها جُزءًا جوهريًّا في المادة، فالمادة في الأساس امتدادٌ وعددٌ وشكلٌ وحركةٌ، هذه الصفات الأولية يدركها العقل؛ لأنها صفات يستقبلها العقل منها، وبما أن العقل هو الذي يستقبلها، فمعنى هذا: أنها حقيقية، أما الصفات الثانوية فلا تستقبلها الحواس من المادة بل تتأثر بها وحسب، والاستقبال عند ديكارت يختلف عن التأثر؛ إذ إن الاستقبال لشيء حقيقي موجود

بالفعل، في حين أن التأثر يمكن أن يكون عائدًا إلى طريقة تركيب وطبيعة حواسنا، وبالتالي فنحن لا نعرف من الأشياء على الحقيقة إلا ما نستقبله منها بوضوح وتميُّز وهو الامتداد والحركة والعدد، أما ما تتأثر به حواسنا؛ فلسنا على يقين من أنه داخل في طبيعة المادة، بل هو صفات ثانوية فيها يمكن أن تتغير مع بقاء الصفات الأولية للمادة كما هي.

تمت

الفهرس

"المغتصب"	٩
"شعار كاذب"	١٣
"سيمفونية الألم"	١٩
"العرافة"	٢٥
"ندبة"	٢٩
"الطبيبة آسيا"	٣٣
"فلسفة صرصور"	٣٩
"العبودية والتحرر"	٤٥
"الغجرية"	٥٣
"المقهى"	٥٩
"فلسفة الأفاعي ورسائل سارتر الإنسانية"	٦٧
"ضياع وتشتت"	٧٣
"العبث"	٨١
"تشاؤم شوبنهاور"	٩١
"العالم إرادةٌ وتمثّل"	٩٣
"عناق الألم"	١٠٣
"سوداوية كافكا"	١١١
"النحات"	١١٧

تشاؤم شوبنهاور

-الحقيقة كالسيف الذي لا يقوى على قطع رقبة دجاجة، ويظل ينحر بها دون جدوى؛ لذلك هي مؤلمة، ولأنها كفيلة بأنها تنحر خلايا عقلك من هول صدمتها، وتصاب حينها بانتفاضة جمود فكرك، ربما تحظى بالتغيير، وربما تصاب بالغثيان والإغماء؛ لأنها قاسية جدًا فوق تصورك العقلي.

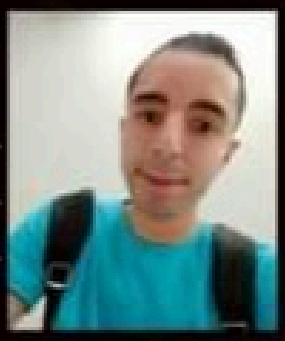

حسن أشرف

صدر له:

- مجموعة قصصية بعنوان "صمتًا رجاءً".
- رواية بعنوان "ما بعد اللعنة".
- مجموعة قصصية بعنوان "غرائز البشر الحيوانية"

ارتقاء

للنشر الدولي والتوزيع

تصميم الغلاف

بلال محمد

حسن أشرف

تشاؤم شوبنهاور

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع